مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية
King Faisal Center for Research and Islamic Studies

قِصّة الكتاب الصِّيني

中國書的故事

تأليف:
ليو كيو - تشن

ترجمة:
عبدالعزيز بن محمد الحميد

قِصّة الكتاب الصِّيني

تأليف

ليو كيو - تشن
الأستاذ في جامعة بكين
Liu Kuo-Chun

ترجمة

عبدالعزيز بن محمد بن عبدالرحمن الحميد
باحث متعاون في مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية

١٤٣١هـ/٢٠١٠م

ح مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، ١٤٣١هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
تشن، ليو كيو
قصة الكتاب الصيني/ ليو كيو - تشن.- الحميد،
عبدالعزيز بن محمد.- الرياض، ١٤٣١هـ
١٤٠ص؛ ١٤ × ٢١سم
ردمك: ٠-١-٨٠٣٢-٩٩٦٠-٩٧٨
١- صناعة الورق ٢- الورق - تاريخ أ. الحميد،
عبدالعزيز بن محمد (مترجم) ب. العنوان
ديوي: ٦٧٦,٧٦٨١ ١٤٣١/٨٦

رقم الإيداع: ١٤٣١/٨٦
ردمك: ٠-١-٨٠٣٢-٩٩٦٠-٩٧٨

الطبعة الأولى

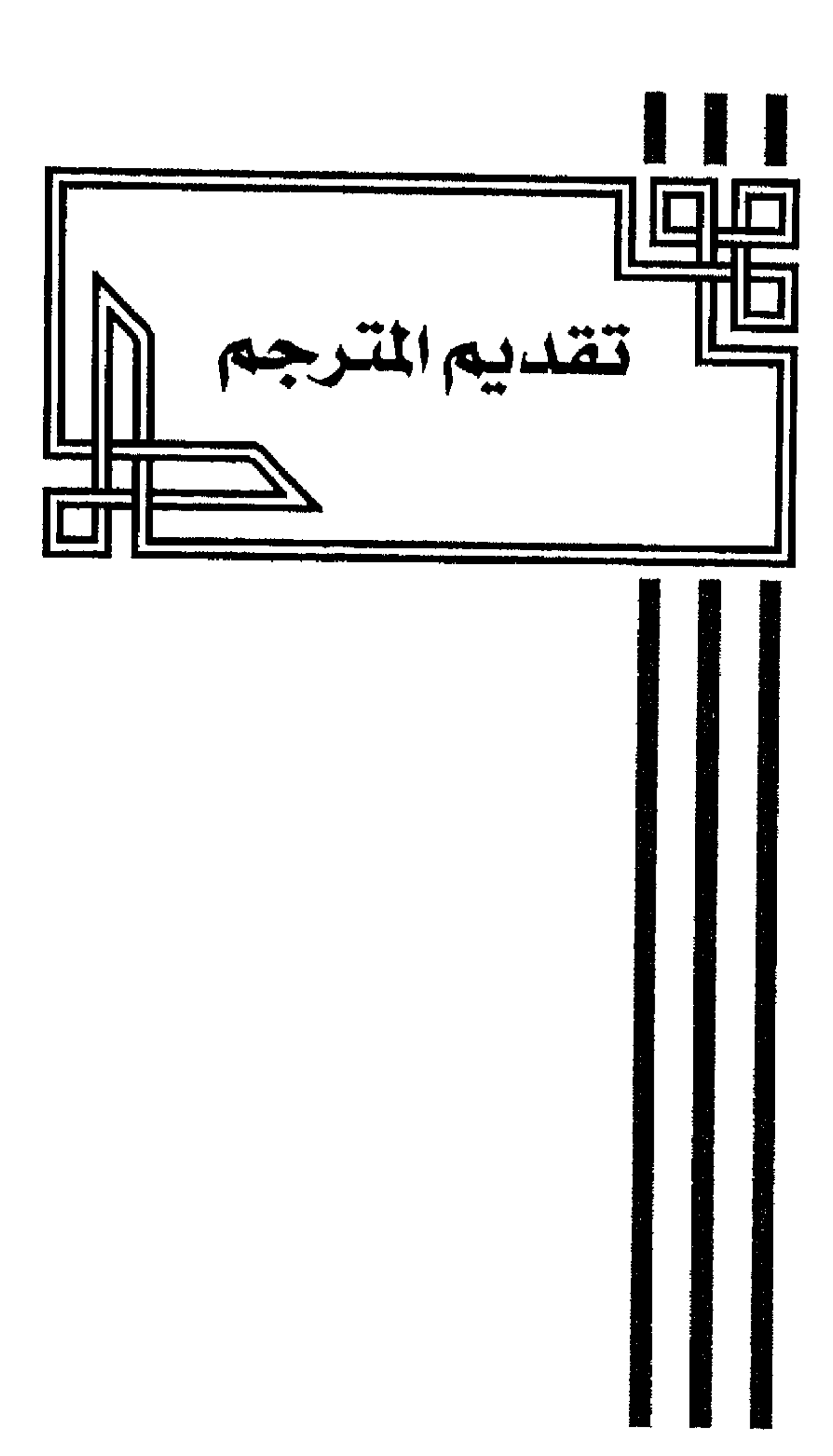
١٤٣١هـ / ٢٠١٠م

هذا النص ترجمة لكتاب:

STORY OF
THE CHINESE BOOK
by:
Liu Kuo - Chun
Professor of Peking University
Foreign Languages Press
Peking 1958



المحتويات



تقديم المترجم

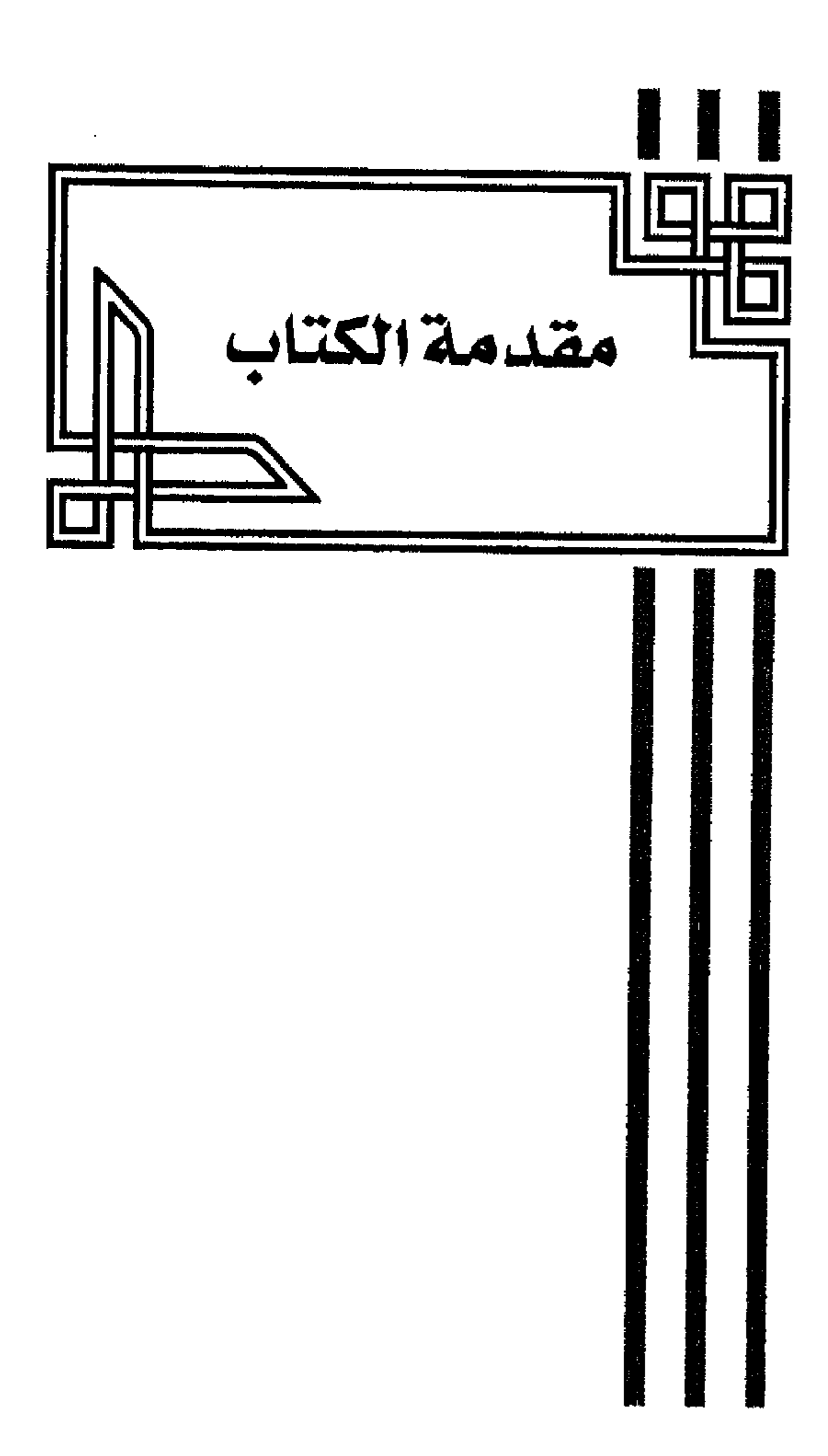
«قصة الكتاب الصيني»، من تأليف ليو كيو - تشن، الأستاذ في جامعة بكين، وقد صدر عن مطابع اللغات الأجنبية في بكين سنة ١٩٥٨م.

وكما للشعوب ملامح تميز بعضها من بعض؛ فللإنجازات العلمية والثقافية أيضاً ملامح تفخر بها الشعوب والأمم.

وهذا الكتاب يُقدِّم أدلة واكتشافات علمية تثبت أن شعب الصين، على مدار أكثر من ثلاثة آلاف عام، قد استطاع تقديم نتاج علمي رائد للبشرية، يتمثل في صناعة الكتاب والتفرُّد - دون سائر الشعوب - باختراعه وتقديمه هديةً، كانت أمم الأرض - ولا تزال - تنهل من معينها المعرفي الذي لا ينضب.

وقد ظهر الكتاب في شكله الحالي مستفيداً من تراكم الخبرات والتجارب على مدار قرون طوال، كما دعمت المنجزات العلمية والتقنية للبشرية مسيرة الكتاب في مرحلة لاحقة في بدايات القرن الميلادي المنصرم.

والكتاب الذي بين أيدينا يُعَدُّ مرجعاً تاريخياً يسبر غور مسيرة اختراع الكتاب منذ بداياته الأولى عبر السلالات والإمبراطوريات التي حكمت الصين، كما يُعَدُّ مرجعاً فنياً وتقنياً للمهتمين بآليات صناعة الكتب، وما طرأ عليها من تطوُّر وتقدُّم منذ مراحلها المبكرة؛ حتى وقت صدور طبعته الإنجليزية في نهاية الخمسينيات من القرن العشرين.



مقدمة الكتاب

إذا ما حدّدنا تعريفاً للكتاب على أنه سجلٌ يعود إلى حقبة معيّنة، وأنه سجل مُدَوَّنٌ على مواد مختلفة ويمكن حمله، عندها سنقول: إن أول كتاب يُقَدَّمُ للبشرية قد أنتجته الصين قبل زهاء ١٤٠٠-١٣٠٠ سنة قبل الميلاد.

وهكذا، فإن للكتاب الصيني تاريخاً يعود إلى أكثر من ثلاثة آلاف سنة، وقد تطور على امتداد تلك الحقبة من شكل إلى آخر، وبصورة متباينة تماماً؛ خصوصاً في بداياته، عمّا هو عليه في وقتنا الحاضر.

إن اللغة المكتوبة شرط أساس وجوهري في تشكيل الكتاب وتكوينه، فقبل اختراع الكتابة لم يكن هناك سوى اللغة المنطوقة، وكان الأوَّلون يمرّرون المعرفة التي اكتسبوها من خلال ما تنطق به ألسنتهم، معتمدين على الذاكرة في سلوك أي من الطرق المختلفة التي تم وضعها.

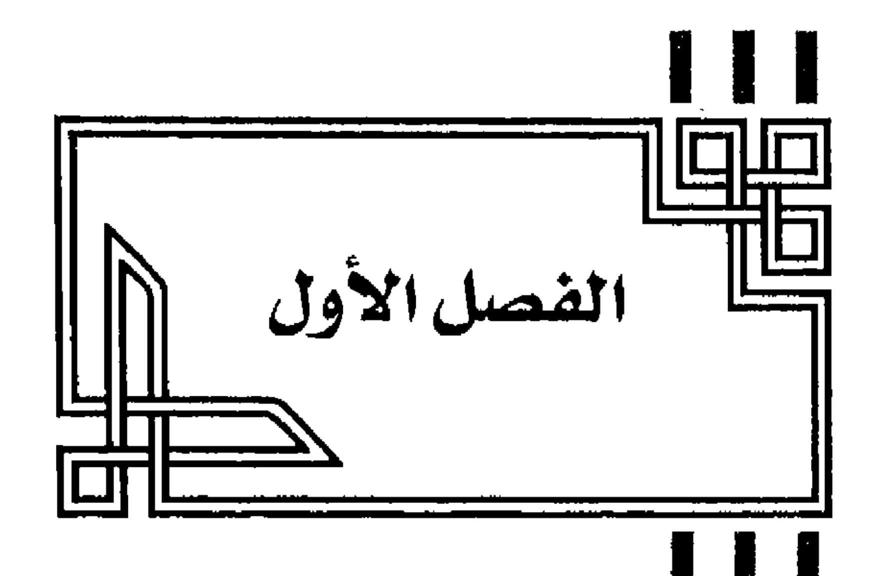
وكان الصينيون الأوائل - مثلهم مثل الشعوب الأخرى - يستخدمون طريقة العُقَدِ المربوطة، على اختلافها؛ كبيرة كانت أم صغيرة، مفردةً أم متعدّدة، مشدودة أم محلولة، أو بألوان مختلفة لتحديد الأشياء المختلفة. وهذا كان قبل اختراع الكتابة.

وكان رسم الصور طريقة أخرى يُعَبِّرُ الأوَّلون من خلالها عن أنفسهم، وكانت المخطوطات الصينية، على وجه الخصوص، نتاجاً لشكل الكتابة التصويرية التي انبثقت عنها اللغة الصينية المكتوبة.

وعلى أي حال، فإن ظهور اللغة المكتوبة آنذاك لم يُفض - في حينه - إلى إمكانية تشكيل الكتاب؛ فقد كان إيجاد المادة التي تُسَجَّلُ عليها الكتابة وتكون - في الوقت نفسه - قابلةً للحمل شرطاً ضرورياً آخر، ولم يكن للكتابة الصينية الأولى نمطٌ ثابتٌ من التدوين؛ فقد كانت تُدَوَّنُ على دروع السلاحف، وعلى عظام الثدييَّات، وعلى البرونز والحجارة والخيزران والخشب والحرير لاحقاً، وأخيراً على الورق.

وقد تطور شكل الكتاب تدريجياً فيما يتعلق باختلاف أنواع التغليف وأشكاله، وقد أدّى اختراع الورق إلى ظهور الكتاب الحديث، كما تطورت عملية النسخ تبعاً للحاجة المتزايدة إلى وجود النَّسخ، وقد مرت فترة طويلة على انتهاج طريقة النسخ اليدوي، وهي فترة سبقت عملية الشَّفِّ من الحجارة بطريقة الحكّ، وكان اختراع الطباعة هو الحلّ الناجع للحاجة الملحّة والطويلة إلى الكتاب؛ مما بشَّر ببزوغ حقبة جديدة من التقدم الثقافي.

إن قصة تَطَوُّرِ الكتاب الصيني هي القصة التي نحاول أن نرويها هنا.



الكتابة على العظام والبرونز والنقش على الحجارة

١- الكتابة على العظام:

الكتابة على دروع السلاحف وعظام الثدييات:

إن أقدم كتابة صينية موجودة هي الـ تشيا كوين *Chia Kuwen* أو: **النقش على العظام**، وتعود إلى أواخر عصر سلالة شانغ الحاكمة (في المدة من القرن السادس عشر إلى القرن الحادي عشر قبل الميلاد). وقد تمّ اكتشاف العظام المكتوب عليها في قرية هسياتون بمنطقة أنيانج، في إقليم هونان قبل سنة ١٨٩٩م تقريباً، وهي السنة التي تمّ فيها تَعَرُّفُ تلك العظام للمرة الأولى. عندما وُجدت العظام فوق سطح الأرض لم يعرف أحد – للوهلة الأولى – كنه تلك العظام. بعد ذلك استرعت انتباه العلماء الصينيين الذين اكتشفوا وجود كتابات قديمة عليها، وبعد دراستها وحلّ شفرتها أدرك العلماء أنها تعود إلى حقبة حكم سلالة شانغ، حيث سُجِّلَت عليها أحداث تلك الفترة (انظر الرسم التوضيحي ١). ولكون تلك العظام المنقوشة ذات قيمة عالية، إذ إنها تقدم للباحثين المهتمين بسلالة شانغ الحاكمة مادة تاريخية مهمة، فقد أخذ معهد التاريخ وعلم فقه اللغة – التابع لأكاديمية سينيكا القديمة – على عاتقه وخلال عشر السنوات من ١٩٢٨-١٩٣٧م، أعمال الحفر والتنقيب في منطقة ين هو (أطلال مدينة ين)، وهي منطقة تقع قرب قرية هسياتون في أنيانغ. وقد أسفرت عمليات الحفر تلك عن اكتشاف عشرات الآلاف من العظام التي تحمل كتابات. وهكذا، تم

الحصول على كمية ضخمة من المواد الأولية الجاهزة للبحث والغوص في التاريخ القديم، وأصبح في الإمكان معرفة ماذا كان عليه حال الكتاب لدى الأجيال السالفة قبل ثلاثة آلاف عام.

وقد أظهرت أبحاث الخبراء أن العظام التي تحمل كتابات نوعان: دروع السلاحف وعظام الثدييات (ألواح الكتف لدى الماشية على وجه الخصوص)، والتي نُقشت عليها كتابات باستخدام إبر معدنية.

والكتابات القديمة مختلفة اختلافاً كلياً، من ناحية الشكل، عن الكتابات الموجودة في زماننا الحاضر، بحيث لا يستطيع الشخص العادي معرفة شيء عنها البتة، والجانب الأعظم في تلك النقوش هو الكتابة المصورة، وتكون - في العادة - على غير نسق أو شكل ثابت. وقد تكون الرموز نفسها مكتوبة عشرات المرات بطرق مختلفة؛ فبعضها قد يكون معقداً كما لو كان صورة مرسومة، وبعضها يكون بدائياً كما لو كان مجرد خطوط، وهذا يقودنا إلى الاعتقاد بأن تلك الكتابات لم تكن بعيدة زمنياً من اكتشاف اللغة المكتوبة، ويمكن القبول بالقول: إن الكتابات الموجودة على العظام هي أقدم كتابة صينية موجودة.

ولأن تلك العظام المكتشفة كانت مدفونة أزمنة طوالاً؛ فإن غالبيتها وجدت مكسورة، ومن الصعوبة بمكان تحديد ما إذا كانت وفق نمط ثابت. وتشير الدراسات إلى أنه لا توجد لها أشكال أخرى غير أشكالها الطبيعية التي وُجدت عليها؛ أي: درع سلحفاة

كامل، أو عظم كامل؛ سواء أكان كبيراً أم صغيراً، أمَّا الكتابات عليها فقد تتألف من عمود واحد من الأحرف، وربما تصل إلى عشرة أعمدة. ويبدو أنه لا توجد لها أنماط ثابتة. وتحتوي النقوش على سجلات من الأسئلة موجهة إلى الآلهة أو الكهنة الأسلاف. وقد كانت الخرافات والممارسات غير العلمية والتنبؤات مُتَجَذِّرَةً بشكل كبير لدى الشانغيّين القدماء. فقبل الذهاب إلى المعركة، أو تقديم القرابين، أو في حالات المرض وغيرها من المناسبات، كان أباطرة شانغ يستلهمون الهداية الإلهية.

ويتم تعريض الدروع أو العظام للحرارة، وبعدها يتم تبريدها بحيث ينتج من تلك العملية تصدّعات في العظام لا يقرأها ويترجم معانيها سوى الرجال الحكماء، وتوجد على العظام كتابات مسجلة هي - في الحقيقة - السبب الداعي للبحث عن الهداية وعن تعاليم الآلهة.

وبما أن الشانغيين كانوا يقدّرون قيمة تلك الكتابات فقد حفظوها باهتمام بالغ، وهو ما أبقاها تلك القرون المتطاولة؛ فشكراً لحفظهم لها؛ فقد أصبح في مقدورنا نبش الأرض واستخراج تلك السجلات المدفونة منذ ثلاثة آلاف عام.

وقد كانت أنيانغ عاصمة مملكة شانغ في أواخر عهدها، وكان هذا المكان يعجُّ بأعداد ضخمة من العظام المنقوشة في غرف للحفظ والتخزين. ومعظم تلك السجلات مؤرخ بالسنة والشهر واليوم الذي طُلب فيه استلهام الهداية من الآلهة. وطبقاً لما ذكره

الخبراء فإن تلك السجلات توضح ظروف الممالك في الحقبة من ١٤٠٠-١١٠٠ قبل الميلاد، والتي يفترض أن يكون بعضها مُنتمياً لعصور أسبق. ومن خلال تلك الاكتشافات القيّمة صار في الإمكان معرفة الكثير عن التاريخ، والسياسات، والشؤون العسكرية والاقتصادية، والعادات والتقاليد، والمنظومة الاجتماعية الخاصة بالشانغيّين؛ فلقد أغنت معرفتنا التاريخية، وقدّمت لنا مادة لم تكن متاحة للمهتمين الأوائل بالتاريخ.

ولا يمكن أن تُسَمَّى العظام المنقوشة كتباً. وكما ذُكر آنفاً فقد كانت مجرّد رسائل مختصرة، ولم يكن الغرض منها نشر المعرفة أو أن تُدَرَّسَ.

٢- البرونز:

منذ القرنين الرابع عشر والثالث عشر قبل الميلاد قام أسلافنا بنحت النقوش أو الرسوم على البرونز، وقد رغبوا في نقش أسمائهم أو حفر رموز على الأدوات والأسلحة لإعلان ملكيتهم لها. ولا يتفق علماء الآثار على تعيين حقبة محدّدة تمّ فيها استخدام البرونز في الصين أول مرة، ويحتمل أن تكون في النصف الأخير من حقبة حكم سلالة شانغ، أي قرابة القرن الرابع عشر قبل الميلاد، وبما أن البرونز كان من المقتنيات المفضّلة؛ فقد كانت الأسماء والرموز الأخرى تُنقش عليه للدلالة على الملكية، وبعد ذلك أصبحت الكتابات على البرونز تُستخدم لغرض إحياء مناسبة ما، أو لشرح الأسباب التي دعت إلى

الكتابة عليه، أو لوصف استخداماته، أو لتسجيل أسماء صُنّاعه. وقد أُحدثت - فيما بعد - استخدامات أخرى للبرونز تحمل كتابات ذات أهمية أكبر دعت إلى حفظها بشكل أفضل، وزادت مساحة الكتابة على البرونز بحيث أصبح عدد الرموز المنقوشة يراوح بين مائة ومائتي رمز.

ولقد قدمت تلك الكتابات التذكارية معلومات مهمة عن الأحداث التاريخية، وكانت تلك المنقوشات تُسَمَّى **مينغ وين** ***ming win*** أي: **الكتابة المنقوشة**، وعُدَّتْ - بطريقة أو أخرى - بدايات السجلات.

وقد استمرّ عصر النقش على البرونز منذ أواخر عهد مملكة شانغ حتى بدايات عهد مملكة هان الشرقية؛ أي من القرن الرابع عشر قبل الميلاد حتى القرن الأول بعد الميلاد، ومنها منقوشات مملكة تشو (القرن الحادي عشر - ٢٢١ قبل الميلاد)، والتي قدّمت أعظم قيمة وثائقية. ويختلف أسلوب كتابات **مينغ وين** ***ming win*** (انظر الرسم التوضيحي ٢) من زمن لآخر، ومن مكان لآخر، ولكن لا يشبه أيٌّ منها الكتابة الموجودة في وقتنا الحاضر. وكانت تلك الرموز تسمّى أيضاً: **تشونغ تينغ وين** ***chung ting wen*** أي: **الكتابة على أجراس البرونز أو المراجل ثلاثيّة القوائم**، وتشتمل على أساليب مختلفة، كان أولها الأسلوب الذي يشابه النقش على العظام، وآخرها ما يُسمى: **هسياو شوان** ***hsiao chuan*** أي: **رموز في شكل أختام صغير**، وكذلك: **لاي** ***li*** أي: **الرموز الرسمية**.

وفي حقبة الربيع والخريف (٧٧٠-٤٧٥ قبل الميلاد) وحقبة الدول المحارية (٤٧٥-٢٢١ قبل الميلاد)، كان لكل دولة - سواء كانت تشاي تشو أو تشين، أو غيرهما - أسلوبها الخاص في الكتابة المنقوشة على البرونز، وعند ترتيب تلك الأساليب المتعددة زمانياً ومكانياً، بحسب أشكال النقش التي كانت تُؤدى، فإنها جميعاً تقدم مادة رائعة للبحث حول موضوع تطور الكتابة الصينية.

وإذا كان لوعاء البرونز غطاءٌ، فقد تكون النقوش موجودة؛ إما في الجزء الداخلي للغطاء، وإما في داخل الوعاء، وإما في كليهما، وقد تكون الكتابات هي نفسها أو مختلفة. وكانت أوعية البرونز تلك تأتي في أشكال متعددة حسب استخداماتها؛ إما لتقديم القرابين للآلهة أو للأجداد أو في الأعياد. وتعني الأسماء: تشاي تشين ***chi chin*** معادن البركة ولاي تشي ***Li chi*** مراكب الاحتفال، وقد وُجدت نقوش مينغ وين ***ming win*** أيضاً على الآلات الموسيقية والأسلحة والأدوات الأخرى، وهي - بشكل عام - ليست نقوشاً أو كتابات طويلة كما هو الحال عليه في نقوش **تشاي تشين** ***chi chin***، التي قد تصل إلى ثلاثمائة أو أربعمائة رمز. وعلى سبيل المثال فإن قطع البرونز القديمة الموجودة حالياً في متحف القصر في بكين؛ مثل قطع سان شيه پان ***San Shih Pan*** وقطع **كيو تشاي تسي باي پان** ***Kuo Che Tse Pai Pan*** تحمل نقوشاً مطولة، وهي تشكل مواد مهمة للبحث في تاريخ مملكة تشو الغربية، وهناك قطع برونزية أخرى

منقوشة وكثيرة في متحف قصر بكين، ومتحف نانكنغ، ومعهد أبحاث الآثار التابع لأكاديمية العلوم الصينية، وهي محل اهتمام كبير لدى العلماء.

وليست النقوش الكتابية وحدها ما يُجَسِّدُ جمال حكمة أجدادنا ومدى الإتقان في الحرفة؛ بل تجسدها أيضاً أشكال الأوعية البرونزية، والتقنية العالية المستخدمة في إنتاجها، والتي تتطرق إلى موضوعات مختلفة ذات أهمية كبيرة للدارسين؛ إذ تحمل في طياتها أروع الأعمال الفنية. إن تلك القطع البرونزية المفيدة، التي استُخدمت في السابق أدواتٍ لتقديم القرابين، أو لتدوين المناسبات الاحتفالية، هي، كذلك، تُحفٌ تصويرية في أحد جوانبها، كما أنها تشكل مع العظام المنقوشة سجلات ذات قيمة عالية للمهتمين بدراسة التاريخ.

٣- الكتابات الحجرية:

لا توجد في الصين كتابات حجرية تم اكتشافها أقدم من تلك الموجودة لدى مملكة تشين (٢٢١-٢٠٦ قبل الميلاد).

إن ممارسة النقش على الحجارة، ونحت الكتابات التذكارية عليها من الفنون التي دأب عليها الصينيون منذ القدم. وقد تكون تلك الكتابات أحياناً على صخرة أو على مسلات قائمة، وقد تكون في أعلى تلك المسلات أحياناً أخرى. وتشتمل تلك النقوش والكتابات على مآثر، أو بطولات عسكرية، أو حكايات عن السفر، أو مغامرات بنّاءة، أو سيرٍ ذاتية، كما أنها تقدم مادة

غنية للأبحاث التاريخية.

في عام ١٧٥ ميلادية، وخلال حقبة حكم امبراطور هان الشرقية: لينغ تاي *Ling Ti*، الذي قدّم - على الأرجح وللمرة الأولى - نصاً كاملاً من الكتابات على الحجارة لعموم الناس لقراءته، في ذلك العام أمر الإمبراطور عالماً يُدعى تساي يونغ *Tsai Yung*، وهو عالم مميز، أن يكتب النص الكامل للكلاسيكيات الكونفوشية التي كانت منقوشة على حجارة تُسمَّى بالحجارة الكلاسيكية، وقد نُصبت ألواح الحجارة تلك في هونغ تو مين *Hung Tu Men* في لويانغ أمام الأكاديمية الوطنية من أجل إتاحة دراستها من قِبَلِ جميع من يستطيع قراءتها.

في ذلك الوقت كان الورق قد اختُرع، لكنه لم يكن مستخدماً على نطاق واسع لأغراض الكتابة، فلم تكن الطباعة قد اختُرعت بعد، وكان النسخ اليدوي هو الطريقة الوحيدة لعمل النَّسخ، وكانت الكتب في ذلك الحين تحتوي - في الأساس - على كتابات على لحاء الخيزران (الفصل ٢)؛ مما يجعل الأخطاء تتكرر في كل نسخة، ودائماً ما يعاني العلماء والدارسون من عدم قدرتهم على ضمان وجود نسخ صحيحة لنصوص الكتب المنسوخة.

إذن، فالاعتماد على الألواح الصخرية المنصوبة يُعَدُّ أمراً ضرورياً، لأنه يمكن تفادي أخطاء الكتابة باليد من ناحية. ومن ناحية أخرى فعند استخدام عملية الشفّ بالحكّ بدلاً من طريقة النسخ باليد؛ فإن ذلك أدعى إلى انتشارها بشكل أسرع؛ لذلك

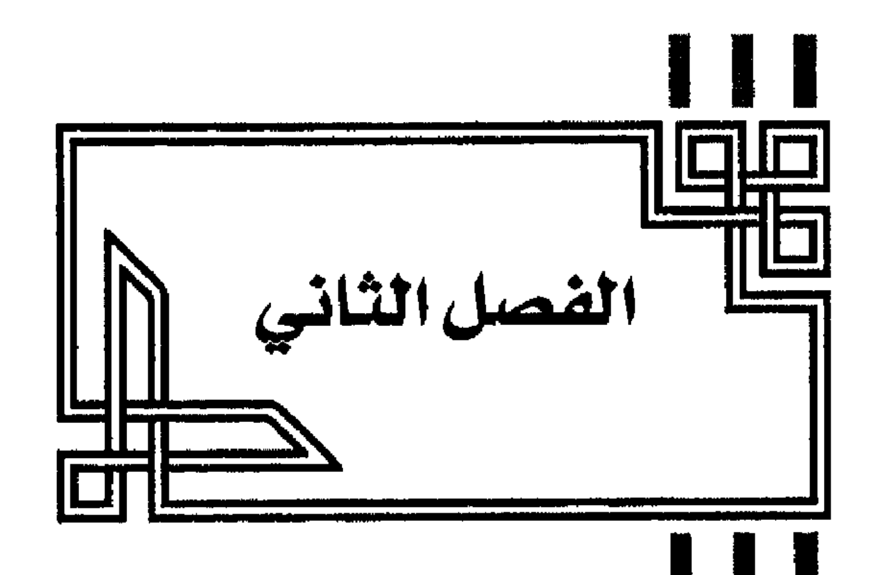
نجد أعداداً كبيرة من الناس تجتمع كل يوم في هونغ تو مين لعمل نسخ من خلال شفّ تلك الكتابات الحجرية.

في بدايات القرن الثالث الميلادي وجّه الإمبراطور مينغ تاي ***Ming Ti*** ملك مملكة وي ***Wei*** (إحدى الممالك الثلاث) الأكاديمية الوطنية في لويانغ بنسخ العديد من النصوص الكلاسيكية الكونفوشية بالحفر على الصخر، وذلك باستخدام ثلاثة أنماط من الكتابة: «النصوص القديمة: نمط ما قبل - تشين» (مملكة تشين)، و«نقوش الأختام»، وكذلك «النقوش الرسمية».

وفي منتصف القرن التاسع الميلادي كان لدى الإمبراطور وين تسونغ ***Wen Tsung*** أحد ملوك سلالة تانغ، اثنا عشر نصاً كلاسيكياً كونفوشياً منحوتاً على الصخر في كاي شو **Kai Shu** في تشانغان (سيان حالياً). وقد بدأت طباعة تلك النصوص الكونفوشية مع ظهور اختراع الطباعة في ذلك الحين على قوالب خشبيّة، ولم تكن النصوص المنقوشة على الحجارة لدى مملكة تانغ ذات تأثير كبير كما هو الحال في نمطي الكتابة الصخرية السابقين. وعلى كل حال فقد استمرّ العديد من الممالك في ممارسة الحفر على الصخور لتسجيل النصوص، وقد أمر الإمبراطور تشين لونغ ***Chien Lung*** ملك إمبراطورية مانشو في أواخر القرن الثامن عشر الميلادي بوضع ثلاثة عشر نصاً كلاسيكياً منقوشاً على الحجارة في الأكاديمية الوطنية في بكين.

وقد احتوت الألواح الصخرية المنقوشة على فوائد جمّة،

والشكر الجزيل لاستخدام طريقة النسخ بالشّف التي سبقت اختراع الطباعة. وكانت الرموز المنقوشة على الألواح توضع على الصخر بالطريقة نفسها التي كُتبت بها، وتتم عملية الشفّ بالضغط على الورق الملامس للحجارة، ومن ثم يُوضع الحبر ويُدعك على الجزء الناتئ من الورق، وبتلك الطريقة يظهر النص بلون أبيض فيما تبقى الأجزاء غير النائتة من الورق باللون الأسود. وقد استمرت عملية الشف باستخدام تلك الطريقة عدة قرون.



الفصل الثاني

الكتابة على لحاء الخيزران والألواح الخشبية والحرير

١ - لحاء الخيزران وألواح الخشب

كان الكتاب الصيني القديم مصنوعاً من لحاء الخيزران أو الألواح الخشبية، وكان الكتاب المصنوع من الخيزران يسمى **تشين تسي** ***chien tse***، والآخر يُسمَّى **فانغ پان** ***fang pan*** أو پان تو ***pan tu***.

وقد شرح العالم **وانغ تشونغ** ***Wang Chung*** وهو من علماء القرن الثاني الميلادي في كتابه **لون هينغ** ***Lun Heng*** طريقة عمل الكتاب المصنوع من الخيزران كما يأتي:

خذ جذعاً أنبوبياً من الخيزران وقطّعه أجزاء صغيرة، ثم قم بشق تلك الأجزاء الصغيرة لتصبح لحاءً مفروداً، ثم دَوِّنْ عليها الرموز باستخدام الفرشاة والحبر. وكانت القطعة الواحدة من لحاء الخيزران المكتوب عليها تسمى **تشين** ***chien*** (انظر الشكل ٣)، ويتم كذلك ثقب عدد من اللحاءات المكتوب عليها وتُجمع في رزمة واحدة، تُسمّى **تسي** ***tse***، أو **تشين تسي** ***chien tse***، وفي حال استخدام الخشب يتم تقطيعه بمنشار على هيئة ألواح رقيقة تسمى **پان** ***pan***، ويُسمى اللوح الرقيق المكتوب عليه **پان تو** ***pan tu*** (انظر الرسم التوضيحي ٤).

أمَّا شكل تلك الألواح الخشبية فيكون في العادة مربعاً أو مستطيلاً، وبحسب المقاييس الصينية(*) تسمى القدم المربعة:

(*) اختلفت معايير المقاييس الصينية في كل مرحلة تاريخية من مراحل الملكية. وعلى سبيل المثال فإن مقياس القدم في مملكة هان ***han*** كان ٢٧,٣سم طبقاً لما ذكره بعض الباحثين؛ بينما مقياس القدم حالياً يساوي ٣٣,٣٣سم.

فانغ تشيه ***fang chih***، أو اختصاراً فانغ ***fang***، ثُمَّ أصبح اسمها فانغ پان ***fang pan***.

وبما أن الحصول على الخيزران والخشب كان متيسراً؛ فقد كان من البديهي استخدامهما مادتين لصناعة الكتب، ممَّا أدى إلى انتشار تلك الصناعة على هذا النحو. وعلى كلٍّ فإن صناعة الكتب بتلك الطريقة لم تكن سهلة؛ إذ يتطلب الأمر حماية الخيزران المقطوع حديثاً من حشرة الخشب، كما يتم تجفيف اللحاء باستخدام النار قبل الكتابة عليه؛ إذ لا بدّ أن يكون سطح اللحاء ناعماً قبل الشروع في الكتابة.

ولا يمكن كتابة سوى رموزٍ قليلة على شرائح الخيزران الطويلة والضيّقة؛ لذا يتطلب الأمر الحصول على عدد أكبر من الشرائح لعمل كتاب. ولتسهيل القراءة يجب ترتيب الشرائح متتالية حسب النص، وتُصَفُّ معاً في رزمة واحدة، باستخدام أسلاك حريرية، وتُسمى تلك الطريقة من الصفّ زي پين ***sze pien***، أمَّا الرزمة التي تحتوي على مقالة كاملة أو فصل فكانت تسمى وي پين ***wei pien***، مثل: الپينات السبع لمنسيوس ***Seven Pien of Mencios***.

ولأن طريقة تشين تسي ***chien tse*** هي الشكل الشائع، فقد أصبحت تُعرف بنظام تشين تسي، لكن تاريخ بداياتها الفعلية غير معروف، وقد تكون في منتصف حقبة مملكة شانغ التي بلغت عصرها الذهبي بين فترتي الربيع والخريف وفي نهاية حقبة مملكة هان الشرقية، وقد حلّ مكانها الورق تدريجياً منذ

القرن الثاني الميلادي، ثم اختفت تلك الطريقة تماماً بعد القرن الرابع الميلادي.

ويبدو أن استخدام الشرائح الخشبية كان محدوداً ولأغراض معيَّنة، مثل المراسلات أو المقالات القصيرة. وتوجد في أعلى الشريحة الخشبية المكتوب عليها (أي الرسالة نفسها) شريحة خشبية أخرى تُستعمل غطاءً لتلك الرسالة، ويُكتب عليها أسماء الأشخاص الموجّهة إليهم الرسالة، وكذلك اسم المرسل، وكان ذلك بمنزلة المظروف البدائي. ويُربط اللوحان معاً برباط متصل بعقدة يوضع عليها الصلصال، ثم يُضغط عليه باستخدام الختم ذي الأحرف المقعّرة، وكان يسمى بالختم الصلصالي. ويبلغ طول الشرائح الخشبية في العادة قدماً صينية واحدة، أو ما يُسمى تشيه ***chih***، إذ إن المسمى الكلاسيكي تشيه تو ***chih tu*** يعني رسالة يبلغ طولها قدماً واحدةً.

وكانت الشرائح الخشبية تُستخدم لكتابة المقالات القصيرة أيضاً، ويقول الكتاب القديم يي لاي ***Yi Li*** أي (كتاب الطقوس): «الرموز التي يبلغ عددها أكثر من مائة تُكتب على لحاء الخيزران، أمَّا ما هو أقل من ذلك فيُكتب على الشرائح الخشبية».

ولتلك الألواح استخدامات أخرى، مثل: كتابة المواد الإضافية أو التكميلية الملحقة بتشين تسي ***chien Tse***، ولرسم الصور والخرائط والجداول، أو الرسوم البيانية.

أما أطوال لحاءات الخيزران فهي موحدة نسبياً، على الرغم

من أن لكل حقبة زمنية مقاييسها الخاصّة. ففي حقبة الربيع والخريف وفي حقبة الدول المحاربة، كان أطول لحاء خيزران يبلغ قدمين وأربع بوصات، وقدماً واحدة وبوصتين للحجم الوسط، أما أقصرها فيبلغ ثماني بوصات. وفي مملكة **هان** بلغت أطوالها قدمين، وقدماً واحدة وخمس بوصات، وقدماً واحدة فقط، أما أقصرها فبلغ خمس بوصات.

وكانت النصوص الكلاسيكية تكتب على أطول اللحاءات، وأما أقصرها فتُكتب عليه السِّيَرُ الذاتية والمقالات. وكانت قوانين الدولة تُكتب على لحاءات ذات أطوال استثنائية تبلغ عادة ثلاث أقدام لإظهار أهميتها. ويُراوح عدد الرموز المكتوبة في كل لحاء بين ثمانية رموز وثلاثين رمزاً أو أكثر؛ لكنه - في العادة - يراوح بين اثنين وعشرين وخمسة وعشرين رمزاً. وغنيٌّ عن القول إن كل مقال يتطلب عدة لحاءات يتم ربطها معاً لتشكل رزمة واحدة، ويجب ترتيب اللحاءات في تلك الرزمة على التوالي، وكان العنوان يُكتب على اللحاء الأول، وإذا شَكَّل اللحاء أحد أجزاء الفصول في الكتاب فإن عنوان الكتاب (العنوان الكبير) يكون مكتوباً أسفل عنوان الفصل (العنوان الصغير)، ويستخدم الغلاف الخارجي للرزمة بأكملها لأغراض الحماية، ويتكون من لحائين ليس مدوناً فيهما كتابات، أو يكون مكتوباً عليهما العنوان فقط، ويسميان باللحائين الإضافيين.

وإذا كان الكتاب يشتمل على عدد من الرزم فإنها تُلفّ بمواد

ناعمة مثل القماش أو الحرير، وفي بعض الأحيان تُوضع الرزم في حقيبة. وكانت طريقة اللف تلك أو الحقائب تُستخدم خصيصاً إذا أُريد حفظها مدة طويلة.

وعلى أية حال فإن هذا الشكل من الكتب لم يكن كافياً ولا ملائماً، فقد كانت شرائح الخشب أو لحاءات الخيزران ضخمة وثقيلة؛ مما يجعل حملها عسيراً، كما كانت تأخذ حيزاً مكانياً كبيراً، وفي كل مرة يتم استخدام الكتاب يجب إعادة ترتيب الرزمة وربطها.

كما تحدث مشكلات في حال تَمَزُّق اللحاءات أو اضطراب ترتيبها، حيث تتداخل بعضها مع بعض، وإذا حدث شيء من هذا القبيل فليس من السهل إعادة ترتيبها كما كانت عليه مرة أخرى، وقد يضيع واحد أو أكثر من هذه اللحاءات، أو ربما توضع في غير مكانها.

وعادة ما يحدث شيء من الكسر أو التلف في اللحاءات ممّا يؤدي إلى الارتباك، وهذا هو السبب الذي يبيّن حدوث أخطاء متكررة في الكتب القديمة، لذلك تُعَدُّ عملية فحص الأخطاء وتدقيقها وتصحيحها وظيفة مهمة لدى الأوائل، ومن المحتم - والحال كذلك - بقاء بعض الأخطاء دون تصحيح.

وخلال السنوات الخمسين الأخيرة تم اكتشاف عدد من شرائح الخيزران والشرائح الخشبية التي يعود تاريخها إلى ما بين القرن الثاني قبل الميلاد والقرن الثالث بعد الميلاد، في سنكيانغ

الجنوبية في يومينكوان من تون هوانج، بإقليم كانسو، وكذلك في بحيرة شيوين في لواء إيشاينا داخل منغوليا. وقد اكتُشفت تلك الشرائح في هذا المكان تحديداً، وقد كتُبت فيها بيانات مفصّلة عن أسلحة، وتتكون من ٢٧٠ شريحة خشبية مؤرخة في ٩٣-٩٥ بعد الميلاد.

وعلى الرغم من أن تلك الشرائح كانت متحللة؛ إلا أن الخيوط التي تربطها لم تكن مهترأة تماماً، فمعظم تلك الشرائح مصنوع من الخشب، إذ يُحتمل أن الخيزران لم يكن متوافراً، لكن شرائح الخشب كانت تُصَنَّفُ وتُربط بالطريقة نفسها المتبعة مع الخيزران، ومعظم الكتابات القديمة التي وجدت هنا كان يتكون من مستندات رسمية تتعلق بشؤون الحدود المتاخمة.

وقد وُجدت في سنكيانغ الجنوبية - بالإضافة إلى الشرائح الخشبية - ألواح خشبية مكتوب عليها باللغة المحلية. وقد رُبِطَ اثنان من تلك الألواح الخشبية معاً برباط وخُتم عليهما بالصلصال، وقد كُتبت الرموز على وجهي اللوحين الملتصقين بعضهما ببعض.

واشتملت الكتابات على مراسلات وعقود، ومن المؤكد أن الألواح قد جُلبت من المقاطعات الداخلية، وكان شكل تلك الألواح مستطيلاً بدلاً عن كونها مربعة، وكان الجزء العلوي في بعضها مقوّساً، ويحتمل أن يكون قد حدث تغيير ما في شكل الألواح المربعة.

وقد عُثر عام ١٩٥١م على سبع وثلاثين شريحة من شرائح الخيزران في ضريح قديم في شانغشا، يعود تاريخها إلى مملكة تشو *chu* في حقبة الدول المحاربة، كذلك عُثِرَ على اثنتين وأربعين شريحة خيزران في ضريح آخر عام ١٩٥٣م، ولم تكن جميع الرموز مقروءةً، وهذه كانت أقدم شرائح خيزران مكتشفة في الصين.

٢- الكتب المصنوعة من نسيج الحرير، وطريقة اللف (الدَّرْج) القديمة:

ظهرت الكتابة على الحرير والقماش خلال حقبة الربيع والخريف وحقبة الدول المحاربة، في الوقت الذي كانت تُستخدم فيه شرائح الخيزران والخشب بصورة شائعة، وكان نسج الحرير يسمى پو ***Po*** أو تشين ***Chien***، أمَّا الكتاب المصنوع من الحرير فكان يسمى پو شو ***Po Shu*** أو تشين شو ***Chien Shu***، ويعني كتاباً من الحرير. وقد قال موتسي ***Motse*** وهو فيلسوف مشهور في القرن الرابع قبل الميلاد: «أنا أكتب على الخيزران أو الحرير، وأنحت على المعدن أو الحجر»، وهذا يعني أن الحرير كان مستخدماً أيام ذلك الفيلسوف، كمادة لصناعة الكتب، جنباً إلى جنب مع الخيزران والخشب.

ومن المقبول الافتراض أن الحرير كان مستخدماً في صناعة الكتب بسبب طبيعة شرائح الخيزران التي لا تفي بكل الأغراض؛ فالحرير ناعم وخفيف، ويمكن طيه وحمله وحفظه بيسر وسهولة. ويقول شانغ شي ***Chang Chi*** وهو عالم من القرن الميلادي الخامس في قاموسه تسي كو ***Tse Ku*** : «كان الحرير في الأزمان القديمة يُقص حسب طول النص المرغوب في كتابته، ثم يُلَفُّ ويُسمى فان تشيه ***fan chih***». وهذا يعني أن الكتاب المصنوع من الحرير ليس له طولٌ ثابتٌ؛ إذ يعتمد كلياً على طول الموضوع المراد كتابته. وعلى الرغم من أن الحرير يمكن طيه؛ إلا أن السجلات

تُظهر أنه كان - في الغالب - ملفوفاً، وكان محتوى اللفّة الواحدة من الحرير المسمّاة شوان ***chuan*** يعادل ما هو مكتوب في رزمة پين ***pien*** من شرائح الخيزران، وتحتوي الشوان ***chuan*** على مقالة كاملة أو عدد من المقالات القصيرة، حيث إن القطعة القصيرة من الحرير التي تحتوي على مقال واحد قصير لا يمكن لفّها بسهولة، وأصبحت الشوان دليلاً على حجم الكتاب، وكذلك حجم الفصل في الكتاب.

وقد تم اكتشاف كتب الحرير قبل خمسين عاماً في الموقع القديم في **لولان** ***Loulan*** في سنكيانغ، كما عُثر عام ١٩٥١م على عدد من كتب الحرير في ضريح قديم في **شانغ شا** ***Chang Sha***، تعود إلى مملكة شو في حقبة الدول المحاربة. وكانت الكتب ممزقة لوجودها تحت الأرض قروناً؛ ما عدا قصاصات بقيت منها. كذلك لم يكن ممكناً تحديد شكلها الأصلي الذي كانت عليه بالضبط، ولم تكن الكتابات الموجودة عليها مقروءة، وطبقاً للسجلات التاريخية فقد كانت صناعة كتب الحرير من الأعمال اليدوية البشرية الفاخرة، ويوجد ١٧٠ كتاباً من الكتب المصنوعة من الحرير تعود إلى **تاي پينغ تشينغ لينغ شو** ***Tai Ping Ching Ling Shu*** وهي من مقتنيات **هسيانغ كاي** ***Hsiang Kai*** من القرن الميلادي الثاني. وقد وُصفت تلك الكتب كما يأتي: «الأعمدة المسطرة باللون الأحمر كانت مرسومة على حرير أبيض، والزخرفة كانت بالأزرق، وعناوين المقاطع كانت مكتوبة بالأحمر، أما النصوص الأساسية فكانت

باللون الأسود». إنها في الحقيقة نتاجٌ متعدّد الألوان!

ومن المحتمل أن تكون الكتب القديمة المصنوعة من الحرير قد صُنعت من الحرير المستخدم في حياكة الملابس، لكن الكتب التي جاءت لاحقاً كانت تُصنع من خيوط الحرير خصوصاً تلك القابلة للطي، ويوجد بها أعمدة مكتوبة تُسمّى الأعمدة الحريرية السوداء أو الأعمدة الحريرية الحمراء. ويحتمل أن يكون المصطلح فان تشيه ***fan chih*** قد استُخدم للإشارة إلى هذا النوع من الحرير.

ويعود أصل كتب الحرير - في أبعد تقدير - إلى نهاية حقبة الربيع والخريف، ثم أصبحت أكثر انتشاراً - بشكل تدريجي - في بدايات حقبة الدول المحاربة، واستمر استخدامها من قِبَل مملكتي تشين هان وتسين (تسين الغربية والشرقية ٢٦٥-٤٢٠م)، وهناك فهرس في هان شو يي وين تشيه ***Han Shu Yi Wen Chih***، بالمكتبة الوطنية خلال فترة حكم الإمبراطور تشينغ تاي إمبراطور مملكة هان. ويُسمى المجلد أو الفصل إمّا پين ***Pien*** أو شوان ***Chuan*** أو بكليهما. وكانت كلمة پين تُستخدم للإشارة إلى رزمة واحدة أو مجموعة رزم من شرائح الخيزران أو الخشب، وكلمة شوان لما يُكتب على الحرير.

وهذا يشهد بأنه خلال القرن الأول قبل الميلاد كانت الكتب المصنوعة من شرائح الخيزران والخشب موجودة جنباً إلى جنب مع الكتب المصنوعة من الحرير، أمّا استخدام مصطلح شوان، الذي يبدو أنه أقل استخداماً من مصطلح پين، فيُبين أن الكتب المصنوعة

من الحرير لم تكن مستخدمة على نطاق عام.

وقد حلَّ الورق محل الخيزران والحرير بشكل متدرج بعد اختراعه في مملكة هان الشرقية، وخلال فترة حكم مملكتي تسين الغربية والشرقية كان الحرير والخيزران لا يزالان يُستخدمان في صناعة الكتب بالإضافة إلى استخدام الورق. وكانت المكاتب الحكومية تستخدم شرائح الخيزران لكتابة المستندات، كما كانت الطبقة الأرستقراطية تستخدم الحرير في كتابة الرسائل في الوقت الذي يحتمل أن يكون الورق مستخدماً فيه. وقد ظل استخدام الكتب المصنوعة من الحرير مدة تراوح بين سبعة قرون وثمانية، إبتداءً من القرن الثالث بعد الميلاد.

كان ثمن الحرير مرتفعاً، وهناك مقولة مأثورة إبّان حكم مملكة هان الشرقية تقول: «ليس في المتناول دائماً استخدام الحرير لأنه عزيز»؛ فالأثرياء فقط يمكنهم استخدام الحرير لأغراض الكتابة، وهو ما يوضح حقيقة استخدام الكتب المصنوعة من الحرير على نطاق ضيّق جداً.

ومن خصائص الحرير سهولة الكتابة عليه مقارنة بالكتابة على شرائح الخيزران، وكذلك حفظه وحمله هنا وهناك. أما عيوبه فتكمن في تكلفته الباهظة، لذا كان لابد من إيجاد بديل يتميز بسهولة الكتابة عليه مثل الحرير، ويمكن الحصول عليه بثمن رخيص، وكان اختراع الورق هو الحلّ الأمثل.

٣- الأعمال المكتوبة والمكتبات الخاصة في فترة استخدام شرائح الخيزران:

كانت الكتب المصنوعة من شرائح الخيزران ومن الحرير هي أقدم الكتب الصينية، إذ كانت موجودة لفترة زمنية طويلة. ويُذكر أن الحكام وكبار المسؤولين، في حقبة مملكتي شانغ وتشو، كان لهم مؤرخون رسميّون مختصُّون بمهمات جمع الكتب والمستندات الرسمية وحفظها في أماكن آمنة. ولا توجد أعمال مكتوبة سبقت تلك الأعمال الموجودة إبّان حقبة الربيع والخريف؛ باستثناء وجود بعض الكتابات على العظام والبرونز وجدت سليمة.

أما أقدم الكتابات الموجودة فكانت تلك التي كتبها الكونفوشيون (٥٥١-٤٧٩ قبل الميلاد)؛ أي قرب نهاية حقبة الربيع والخريف؛ بما في ذلك شيه شينغ ***Shih Ching*** (كتاب القصائد) وشو شينغ ***Shu Ching*** (أحداث وتاريخ حقبة الربيع والخريف) - وذلك بحسب السجلات المتوافرة حالياً لدولة لو ***Lu*** - وكذلك كتاب يي لي ***Yi Li*** (كتاب الطقوس)، وكتاب يويه شينغ ***Yueh Ching*** (كتاب الموسيقى) وكتاب يي شينغ ***Yi Ching*** (كتاب التغييرات).

وتقول القصة إن الكونفوشيين أحبّوا كثيراً (كتاب التغييرات)، وكانوا يقرأونه باستمرار ودون ملل. وقاموا بتدريس تلاميذهم تلك الكتب إضافة إلى الكتب الكلاسيكية للعصر الإقطاعي، وكانت تلك بداية انتشار المعرفة من طريق الكتب. وكانت الكتب الكلاسيكية مكتوبة على شرائح الخيزران ومجموعة في رزم.

وفي حقبة الدول المحاربة أصبحت أعمال عدد من المفكرين مثل: لاوتسي ***Laotse***، وشوانغ تسي ***Chuangtse***، وموتسي ***Motse***، وشانغ يانغ ***Shang Yang***، وهان في ***Han Fei*** وآخرين، معروفة على نطاق واسع، كما تركوا أثراً كبيراً في الحركة الفكرية امتد حتى وقتنا المعاصر، وتزامن ذلك مع ظهور قصائد الشاعر العظيم شو يوان ***Chu Yuan*** عندما كتب عمله الرائع لي ساو ***Li Sao***. وقد أسهمت الكتب الأخرى المختلفة، سواء في مجال العلوم التطبيقية كالطب والزراعة، وغيرها من كتب الفلسفة والأدب والعلوم العامة... إلخ، في ازدهار كميات الكتب وتنوعها.

وفي العام ٢٢١ قبل الميلاد سقطت الدول المحاربة قبل سقوط شيه هوانغ تاي ***Shih Huang Ti*** إمبراطور مملكة تشين، وتوحّدت الصين بعدها في إمبراطورية واحدة. ولأجل الإبقاء على سلطته المركزية وعلى أفكار المملكات السابقة، أمر الإمبراطور بحرق الكتب؛ مستثنياً تلك التي تتعلق بتاريخ الصين والطب والصيدلة والكهانة والزراعة. وكان مجرّد مناقشة كتاب القصائد وكتاب تاريخ حقبة الربيع والخريف يعد جريمة عقوبتها الإعدام، أمّا من ينتقدون فترة حكمه - آنذاك - فيُحكم عليهم بالإعدام هم وعائلاتهم وقرابتهم جميعاً. وقد دُفن أكثر من أربعمائة عالم أحياء. وفي خضم تلك الأجواء التدميرية واسعة النطاق تمّ إتلاف عدد ضخم من الكتب الخاصة بحقبة الربيع والخريف وحقبة الدول المحاربة؛ فعلى سبيل المثال لم يظهر كتاب الموسيقى مرة

أخرى على الإطلاق، بينما بقي كتابا: تاريخ حقبة الربيع والخريف، والطقوس غير كاملين.

وهناك كتب أخرى كثيرة يُحتمل أن تكون قد فقدت إلى الأبد؛ إلا أن هذا الأمر ليس على إطلاقه تماماً؛ فقد أخفى الناس الكتب بطرق عديدة، في الكهوف والجدران، وفي جميع الأماكن التي يمكن إخفاؤها فيها.

وبعد ازدهار فترة الزراعة، أي بنهاية مملكة تشين، عادت الكتب إلى الظهور مرة أخرى تدريجياً، وهي مرحلة قادها تشين شانغ ***Chen Shang*** ووو كوانغ ***Wu Kuang***. وعلى أي حال فقد استمر قرار منع حيازة الكتب وبقي سارياً حتى بعد تأسيس مملكة هان، ولم يتم إبطاله حتى عهد الإمبراطور وي تاي ***Wei Ti*** (١٩٤-١٨٧ قبل الميلاد) إذ سُمح بعدها للناس بالاحتفاظ بالكتب علانية.

وبعد ستين سنة، وتحديداً في فترة حكم الإمبراطور هان وو تاي ***Han Wu Ti*** التي ازدهرت فيها البلاد، وازداد النتاج الثقافي وتطوّر، وأصبح للكتب أهمية ملموسة، أمر الإمبراطور بجمع الكتب وتأسيس المكتبات الوطنية التي ضمّت نُسّاخاً محترفين لعمل نسخ من الكتب. وكان ذلك أول حدث تمّ تسجيله في التاريخ الصيني يُظْهر اهتمام الدولة بجمع الكتب بشكل رسمي وتأسيس مكتبات وطنية، ونتيجة لذلك التشجيع ظهر المزيد من الكتب من مخابئه. وكانت الكتب التي جُمعت في ذلك الحين مصنوعة من شرائح الخيزران التي أُخفيت مدة طويلة تحت الأرض، مما عَرَّض

الخيوط التي تربطها للتلف، وكانت شرائح الخيزران غير مرتبة بحيث كان من الصعوبة بمكان الاستفادة منها، ولكن، على أي حال، بدأت الكتب تنتشر في أوساط الناس، وتؤدي دوراً عظيماً في الحفاظ على الثقافة القديمة.

وبعد قرن، في عام ٢٦ قبل الميلاد، أمر الإمبراطور **هان شينغ تاي** ***Han Cheng Ti*** مرة أخرى بجمع الكتب، وقد بُعث المسؤولون عن ذلك إلى أنحاء مختلفة من البلاد للتقصّي وجمع الكتب، وقد تم تعيين عدد من العلماء في حقول مختلفة من العلوم لدراسة شرائح الخيزران المجموعة وترتيبها، ومنهم العالم **ليو هسيانغ** ***Liu Hsiang*** الذي خلفه بعد وفاته ابنه **ليو هسين** ***Liu Hsin***، والعالم الاستراتيجي **جين هونغ** ***Jen Hung***، ومن الأطباء: **لي شو - كو** ***Li Chu-Kuo***، وعالم الفلك **ين هسين** ***Yin Hsien***. ونتيجة لتلك الجهود العلمية تمّ استكمال أول مصنّف في التاريخ الصيني وأول مصنف في العالم، الذي أعيد تصنيفه من قبل العالم **پان كو** ***Pan Ku***، وأصبح اسمه بعد مراجعته وتحقيقه: **هان شو يي وين تشيه** ***Han Shu Yi Wen Chih***، وتمّ الاحتفاظ بعد ذلك بالكتب القديمة في المكتبات الوطنية، وانتشر عدد قليل من النسخ في الخارج.

وقد أُتلف الكثير من الكتب حرقاً إبّان حدوث الاضطرابات الأهلية والصراع الذي استمر سنوات بين مملكتي هان الغربية والشرقية.

وقد تمّ إعادة تحرير الكتب وجمعها إبّان حكم مملكة هان الشرقية، ولكن الكتب تعرّضت، قرب نهاية تلك المملكة، للإتلاف مرة أخرى نتيجة للحروب، وما أدت إليه من دمار، مما أدى إلى فقدان جميع الكتب التي جُمعت تقريباً. ومن بين أشهر الكتب التي أُلّفت أو كُتبت من قبل علماء مملكة هان: كتاب شيه تشيه **Shih Chih** (السجلات التاريخية) الذي ألّفه زيما شين **Szema Chien**، وكذلك كتاب هان شو **Han Shu** (تاريخ مملكة هان) الذي ألفه پان كو **Pan Ku** وأخته پان شاو **Pan Chao**، وأعمالٌ أخرى ألّفها علماء منهم: الطبيب شانغ شونغ - شينغ **Chang Chung- Ching**، وعالم الفلك شانغ هينغ **Chang Heng**، وعلماء في النقد منهم: وانغ شونغ **Wang Chung**، ووانغ فو **Wang Fu**، وتسوي شيه **Tsui Shih**، وتشنغ شانغ - تونغ **Chung Chang - tung**، وعدد كبير من العلماء الآخرين.

باختصار، كان الزمن الذي تُصنع فيه الكتب من شرائح الخيزران هو زمان رواج ثقافة المجتمع الإقطاعي، وبدء ظهور الأعمال الكلاسيكية في الفلسفة والأدب والعلوم وتطوّرها.

وقد قام الحكام الإقطاعيون بالتحرّي عن الكتب وجمعها وإعادة تحريرها. ومن جهة أخرى تزامن ذلك مع حظر الكثير من الكتب وقمع مقتنيها، وما تبع ذلك من فقد عدد كبير من الكتب بسبب الحروب والحرق. وقد تمّ اختراع الورق في نهايات تلك الحقبة، وحلّ مكان شرائح الخيزران تدريجياً.



الفصل الثالث

اختراع الورق ونظام اللّف (الدَّرْج)

١ - اختراع الورق وانتشاره للمرة الأولى:

مَثَّلَ اختراع الورق خطوة رائعة أدّت إلى نتاج هائل من الكتب وانتشار واسع للثقافة. ويعود الفضل في اختراع الورق إلى الشعب الصيني. وقد كتب فان ييه ***Fan Yeh***، الذي عاش في القرن الميلادي الخامس، سيرة ذاتية عن تساي لون ***Tsai Lun*** في كتابه: هو هان شو ***Hou Han Shu*** (تاريخ مملكة هان السابقة)، قال فيها:

> منذ العصور القديمة كانت غالبية الكتب مصنوعة من شرائح الخيزران وبعضها من الحرير، وكانت موادها تُسمّى تشيه ***Chih***، وبما أن شرائح الخيزران كانت ضخمة في حجمها والحرير كان مكلفاً، فإن الكتب المصنوعة من تلك المواد لم تكن في المتناول، وقد اقترح تساي لون ***Tsai Lun*** استخدام لحاء الشجر وخيوط القِنَّب والخِرق البالية، أو شباك الصيد القديمة، في صناعة الورق، وفي السنة الأولى من محاولة يوان هسينغ ***Yuan Hsing*** (١٠٥ بعد الميلاد) أبلغ الإمبراطور عن اختراعه هذا والذي أُعجب به وبعبقريته، ومنذ ذلك الحين انتشر استخدام الورق على نطاق واسع.

كان تساي لون خصيّاً، وكان يعيش في البلاط الإمبراطوري لمملكة هان الشرقية، ونتيجةً لأَسْرِهِ في البلاط؛ فقد عُيّن مسؤولاً رفيعاً تحت مسمّى هو ***Hou***، إلا أن ذلك كان مكيدة دفعت به إلى الانتحار.

وهناك اختلاف في وجهات النظر حول ما إذا كان تساي لون هو المخترع الفعلي للورق أم لا؟ وبما أنه كان مسؤولاً في البلاط، ومعنيّاً بشؤون القصر الإمبراطوري؛ فمن المحتمل أنه كان على اتصال بالطبقة العاملة من الشعب الذين ربما تكون لهم معرفة بدائية بطريقة صنع الورق، ويُحتمل - كذلك - أن يكون قد أطلع الإمبراطور على ما عرفه عن الاختراع الجديد، وقد يكون استكمل عملية التصنيع ممارسةً.

وتدل كتابات هسو شينغ ***Hsu Sheng***، وهو معاصرٌ لتساي لون، على أنه كانت هناك «طريقة ما» لتصنيع الورق قبل إعلان تساي لون عن اختراعه، وقد قدّم هسو شينغ في كتابه شو وين تشيه تسي ***Shuo Wen Chieh Tse*** (القاموس التحليلي للرموز) وصفاً لطريقة التصنيع كما يأتي:

«ضع سِبال الحرير في ماء، وقم بتحريكها في سائل غليظ، ثم انشرها على شريحة الخيزران، وعندما تجف تتشكل الرقائق. وهذا هو الورق».

لقد أكمل هسو شينغ قاموسه قرابة سنة ١٠٠ بعد الميلاد، مؤكداً بذلك أن محاولات صناعة الورق من مخلفات الحرير قد سبقت زمن تساي لون. لقد كان استحداث الورق - وهو بطبيعة الحال أرخص وأكثر توافراً من المواد الأخرى - تقدّماً تقنيّاً عظيماً، يَسَّرَ إنتاج كميات هائلة من الورق قدر الإمكان.

لكن لا يمكن تسمية ذلك اختراعاً أصلياً؛ إذ يجب أن يُعزى

الاختـراع الأصلي إلى الناس الذين استـخدموا مـخلفات الحـرير لصناعة الورق، وكان ذلك قبل عـام ١٠٥ بعد الميـلاد؛ إذ من المعلوم أنه في العام ١٢ قبل الميلاد – وخـلال عصر مملكة هـان شينغ تاي – كـان الورق قـد استـُخـدم فـعليـاً لتـغليف الأدوية في البـلاط الإمـبـراطوري، أمَّـا حـقـيقـة أن تسـاي لون قـد أبقى على الاسم القـديم تشيـه ***Chih*** بدلاً من استـخـدام اسم جـديد، فـهـذا دلالة أخـرى على أن الورق لم يكن شيـئـاً جـديداً تمـامـاً؛ ولكن مـجـرد تطوير شيء موجود أساساً.

لذا، فهناك حقيقة قائمة بأن الصينيين عرفوا كيف يصنعون الورق في القرن الميـلادي الأول، ومن بين البقايا القديمـة الموجودة حالياً في المتحف البريطاني والتي أخذهـا الإنجليزي أوريل ستين ***Aurel Stein*** من يومـــينكوان تونهـــوانـغ ***Yumenkuan Tunhuang*** في عــام ١٩٠٧م، بقايا تسع رسائل مكتوبة باللغة السوجدانية. ولم تكن تلك الرسائل مؤرخة؛ لكن يُقَدَّرُ أن تكون من شرائح الخشب التي كانت مدفونة هناك في الوقت نفسه، وكان آخرها مؤرخاً في سنة ١٣٧ بعـد الميـلاد. وقـد نفـتـرض أن تلك الرسـائل لا يمكن أن تكون موجودة قبل تلك الحقبة، وقـد يُستنتج من ذلك أيضاً أنه خلال خمسين عاماً بعد إعلان تساي لون عن اختـراعه، كـان الورق قد انتـشـر إلى أقـاليم منهـا مـا يُسـمى في يومنا الحـاضـر كانسـو سينكيانغ ***Kansu & Sinkiang***.

ويبـدو أن الورق لم يكن مـسـتـخـدمـاً على نطاق واسع في

البداية، وقد يكون ذلك لرداءة خامته في مراحلها الأولية، كما كان الأرستقراطيون والعلماء - كقاعدة سلوكية - متحاملين على الجديد، إضافةً إلى عدم اهتمامهم باستخدام الأشياء الرخيصة التي يستخدمها عامّة الناس، كما استمرت الطبقة العليا المثقفة في استخدام الخيزران والحرير موادَّ أساسيةً لصناعة الكتب.

ولم يُستخدم الورق على نطاق واسع إلا بعد القرن الميلادي الثالث، وبشكل تدريجي، وهناك مقولة كانت سائدة، كما يتبيّن من الرسائل التي كُتبت في القرن الثالث توضح الحال جيداً: «إننا فقراء جداً وليس في إمكاننا استخدام الحرير وعلينا استخدام الورق لكتابة الرسائل».

وفي القرن الميلادي الرابع أصدر القائد العسكري هوان هسوان ***Huan Hsuan*** أمراً بالنصّ الآتي: «في العصور القديمة كان الخيزران يُستخدم لأنه لم يكن هناك ورق، والآن يجب استبدال الورق الأصفر بالخيزران». ومنذ ذلك الحين حلّ الورق محلّ الخيزران كمادة للكتابة بشكل كامل.

وغنيٌّ عن القول إن الصينيين هم من اخترع الورق الملون منذ البدايات الأولى، كما اخترعوا طريقة حفظ الورق؛ فالورق الأصفر المذكور في الأمر الذي أصدره القائد العسكري هوان هسوان كان مصبوغاً بخلاصة مأخوذة من لحاء شجرة تستخدم لحماية الورق من الحشرات.

بعد اختراع الورق أصبح انتشاره سريعاً، وقد ظهر في لولان **_Loulan_** في سينكيانغ **_Sinkiang_** سنة ٢٠٠ بعد الميلاد، وفي تورفان **_Turfan_** سنة ٣٩٩م. وتدلّ مصانع الورق التي أُنشئت في أماكن مختلفة، في آسيا الوسطى وأوروبا وغيرها، على انتشار فنّ صناعة الورق الصيني. وقد بدأت صناعة الورق في سمرقند بآسيا الوسطى بجهود عمال صينيين سنة ٧٥١م، وهي المرة الأولى التي يُصنع فيها الورق خارج الحدود الصينية، أي بعد ٦٥٠ سنة من زمن تساي لون. وقد تبع ذلك إنشاء مصانع للورق في بغداد سنة ٧٩٣م، وفي مصر قرابة سنة ٩٠٠م، وفي المغرب سنة ١١٠٠م.

وفي عام ١١٥٠م، أي بعد عصر تساي لون بأكثر من ألف سنة، تمّ افتتاح أول مصنع أوروبي للورق في زاتيفا بإسبانيا، وبدأت صناعة الورق في إيطاليا سنة ١٢٧٦م، وفي ألمانيا سنة ١٣٩١م، وفي إنجلترا سنة ١٤٩٤م، وفي أمريكا سنة ١٦٩٠م، ومنذ ذلك الحين أصبحت صناعة الورق من المعارف الشائعة.

٢- صناعة الكتب باستخدام طريقة اللّف (الدَّرْج) والقضبان الخشبية أو الحديدية:

كانت تلك الطريقة هي الشكل الأول الذي بدت عليه الكتب المصنوعة من الورق، التي أعقبت طريقة درّج الحرير، حيث تُجمع الأوراق معاً وتُلَفُّ حول قضيب لتشكل لفافة، وتُسمى تلك الطريقة: نظام القضيب والدّرْج.

وحتى يومنا هذا لم يَرَ أحدٌ كتاباً مصنوعاً من الورق يعود تاريخه إلى القرن الذي استُخدم فيه الورق أول مرة. وقد عرفنا من السجلات فقط أن أول كتب مصنوعة من الورق كانت على هيئة لفافات. وقد عُثر على عدد كبير من الكتب المصنوعة من الورق يعود تاريخها إلى القرن الميلادي الخامس والقرن الميلادي السابع - على وجه الخصوص - في كهوف مخصصّة لآلاف من تماثيل بوذا في تونهوانغ ***Tunhuang*** في كانسو ***Kansu***، ولا تزال اليابان تحتفظ ببعض الكتب القديمة المصنوعة من الورق وتعود إلى القرنين الثامن والتاسع الميلاديين، والتي جُلبت من الصين. وتلقي تلك الكتب القديمة وسجلاتها المعاصرة الضوء على نظام الدرج والقضيب الذي وصل إلى أعلى مستوى من التطور في الحقبة بين النصف الأخير للقرن السادس والقرن التاسع الميلاديين. ويُفترض أن تكون أوائل الكتب المصنوعة من الورق التي تستخدم نظام الدّرّج والقضيب أكثر بساطة.

ويعتمد طول الورقة على طول الموضوع، وكان محتوى اللفة شوان ***Chuan*** هو نفس محتوى حزمة الخيزران پين ***Pien*** تقريباً، وكانت الأعمدة المسطرة على الورق مرسومة بالجرافيت (وهو نوع من الكربون الأسود الطري) وتُسمّى «الحدود»، وكانت الحدود العليا والسفلى تسمّى بالحوافّ، وعادة ما يُترك العمودان الأولان في الكتابة فارغين، وجاء ذلك تبعاً لما كان عليه الحال مع طريقة الكتابة على شرائح الخيزران التي يُسمى العمودان الأولان منها:

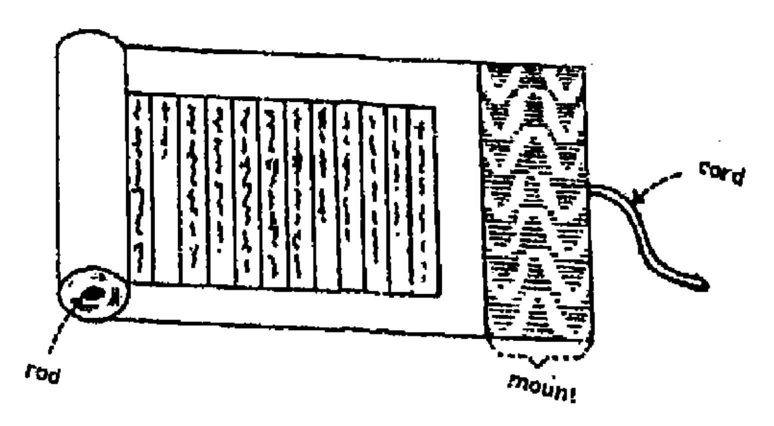
«شرائح إضافية» ولا يُكتب فيهما شيء حتى وقت لاحق، حيث كان يتوجب كتابة عنوان الكتاب في تلك الهوامش، ويُكتب في الأعمدة التالية عنوان المقال أو الفصل (عنوان جانبي)، ورقم اللفّة شوان ***Chuan***، وبعد ذلك تبقى مساحات قليلة لعنوان الكتاب (العنوان الرئيسي).

وعندما يُستكمل النص يتم الإبقاء على عمود واحد لكتابة العام والشهر الذي تم فيه النسخ، وكذلك اسم الناسخ (كانت معظم اللفّات القديمة تترك هذا العمود فارغاً)، وأخيراً يُدون عنوان المقال أو الفصل مرة أخرى، وكذلك رقم اللفّة.

وقيل: إن كل عمود في اللفات القديمة يحتوي على سبعة عشر رمزاً، ولكن الاستنتاجات الفعلية تُظهر أنها تصل إلى ٢٠-٢٤ رمزاً، ويتراوح طول اللفة - اعتماداً على طول المقال - من ثلاث إلى عشر أقدام، بينما يبلغ عرضها قدماً واحدة في العادة، وكان هذا هو المعيار المتّبع لمقاس عرض الورقة، وكذلك عرض شرائح الخيزران. وكان المتبع أيضاً، في كتابة الكتب خلال المدة من القرن الثالث حتى السادس الميلاديين، أنه إذا كان الكتاب مشروحاً بحواشٍ يكون النص مكتوباً بالحبر الأحمر والحواشي بالحبر الأسود، وهناك طريقة أخرى متبعة تُكتب فيها الملاحظات برموز أصغر في عمود واحد أو عمودين مباشرة تحت النص. ولكن هذا الشكل - أو تلك الطريقة - له سلبياته حيث يُسبب إرباكاً وخلطاً بين الملاحظات، أو الحاشية، والنص الأساس، ولهذا السبب نجد الناس يتعثرون في قراءة الكثير من الكتب القديمة المكتوبة بخط اليد، وفهمها كذلك.

وعـادة مـا يكـون القـضـيب مـصنوعـاً من عـصـا خـشـبـيـة مـصـبـوغـة، وهذا مـا كانت عليـه الكتب التي عُثِرَ عليها في تون هوانغ ***Tunhuang***، التي يعـود تاريخـهـا إلـى القـرنين الخـامس والسادس الميلاديين. كما كانت القضبان تُصنع من مواد أخرى، مثل: البورسيلين المصقول، والعاج، ودروع السلاحف، والمرجان، وخشب الصندل الأحمر، أو من الذهب والأحجار الكريمة. وكانت تلك المواد مستخدمة - في الغالب - من قبل أصحاب البلاط الإمبراطوري أو النبلاء، وعلى كلٍّ فقد كان الخشب هو المادة الأكثر استخداماً بشكل عام.

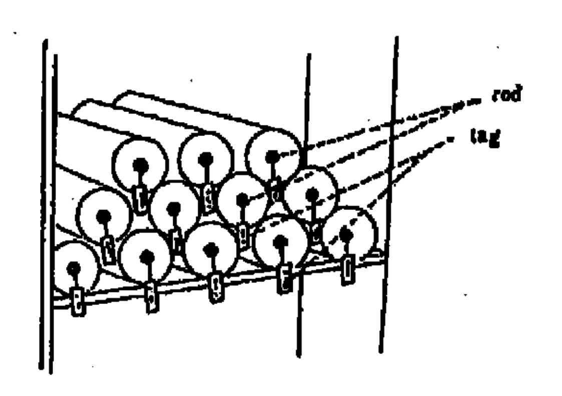
ولحماية اللفافة من التلف كانت تُركَّبُ على قطعة من الورق أو نسيج الحرير تُسمى پياو ***Piao***، ويكون هناك حبلٌ موصولٌ بالپياو لربط اللفافة. وكان القدماء يهتمون كثيراً بهذا الحبل، أو الرباط، الذي يكون مصبوغاً بألوان مختلفة ومنسوجاً يدوياً بالتحديد؛ مثله مثل تلك الأربطة المستخدمة الآن لإحكام ربط الرسوم القديمة (انظر الشكل التوضيحي ١٢).



الرسم التوضيحي ١٢: لفافة مع قضيبها، السّناد والحبل

ويحتوي الكتاب على عدد من اللّفات، وهناك بعض الطرق المستخدمة لتحاشي الخلط في حال كانت هناك كتبٌ مختلفة، فيتم استخدام قطعة من القماش، أو مادة أخرى، لتغليف عدد من اللفات معاً لتشكّل كتاباً واحداً. وتحتوي التغليفة الواحدة – عادة – على خمس إلى عشر لفات، وقد يتطلب الكتاب ذو الحجم الكبير أكثر من قطعة قماش واحدة للتغليف. ولأغراض الحماية والحفظ، وعدم تداخل اللفات معاً، فإن قماش التغليف يُصنع من الحرير أو من خيوط القنّب، وكانت مادة التغليف القديمة تُصنع من الخيزران الفاخر مشروكةً بالحرير وتُسمى تشو تشيه *Chu Chic* (الرسم التوضيحي ٥).

وهناك حبل أو رباط في إحدى نهايات وسيلة التغليف لغرض الربط، وعند وضع اللّفة على الرف يمكن رؤية الرباط متدلياً من طرفها. وهناك بطاقة مسجلٌ فيها اسم الكتاب وعدد اللّفات، أو أية تعريفات أخرى مرفقة بكلّ لفافة، حيث ييسر ذلك سحبها من الرّف أو إعادتها إليه (الشكل، ١٣).



الرسم التوضيحي ١٣: اللفافات على الرف مع بطاقاتها

٣- الأعمال التي تمّ إنتاجها والكتب التي تمّ حفظها خلال حقبة اللّفائف والقضبان:

كانت الكتب التي تُستخدم فيها طريقة اللّف شائعة فيما بين القرنين الثاني والعاشر الميلاديين، وقد أصبحت تلك الطريقة متبعة - فيما بعد - مع الخرائط والمخطوطات البوذية... إلخ. وكان نسخ الكتب يتم باليد (الشكل ٦)، وبما أن الورق أصبح مُتاحاً في ذلك الحين؛ فقد زاد عدد النُّسَّاخ، وظهر نُسّاخ محترفون في القرنين السابع والثامن الميلاديين، وكذلك باعة للكتب المنسوخة بخط اليد، كما ظهرت محلات بيع الكتب، وكثر تداول الكتب بشكل سريع، وأصبحت القراءة وجمع الكتب أكثر سهولة.

ونتيجةً لذلك حُفظت الأعمال التي أُنجزت في تلك الحقبة بأعداد أكثر ضخامة من تلك الأعمال التي تمّت في مراحل سابقة؛ فبعد القرنين الرابع والخامس الميلاديين كانت الكتب تُحسب بعدد اللّفات (شوان)، وبعدها بفترة وجيزة كانت تُحسب بالحزمة (پين)، كما كان الحال عليه إبّان حقبة شرائح الخيزران. وكان نسخ الكتب يدوياً شائعاً في فترة ما بين مملكتي الجنوب والشمال (٤٢٠-٥٨٩م)، ومملكتي سوي ***Sui*** (٥٨١-٦١٨م) وتانغ ***Tang*** (٦١٨-٩٠٧م). وقد جمع إمبراطور مملكة الجنوب ليانغ يوان تي ***Liang Yuan Ti*** (٥٥٢-٥٥٤م)، من كيانغ لينغ (المسمّاة حالياً مقاطعة هوبيه) أكثر من ٦٧,٠٠٠ شوان من الكتب المنسوخة يدوياً، وأمر إمبراطور مملكة سوي يانغ تي ***Yang Ti*** (٦٠٥-٦١٨م)، بنسخ أكثر من

٨٩,٠٠٠ شوان في لويانغ، كما جمع إمبراطور مملكة تانغ هسوان تسونغ ***Hsuan Tsung*** (٧١٣-٧٥٥م) ٥١,٠٠٠ نسخة شوان في شانغان (سيان حالياً)، وتم وضعها في أربع غرف للحفظ. أمَّا الإمبراطور **تانغ وين تسونغ** ***Tang Wen Tsung*** فقد جمع ٥٦,٠٠٠ نسخة شوان، ووضعت في اثنتي عشرة غرفة في قصور شانغان.

كانت تلك الكتب تُوثق بطريقة جميلة بقضبان من الأحجار الكريمة وعُرًى من العاج وخيوط الحرير بألوان مختلفة؛ لتوضيح التصنيفات المتعددة للكتب والمجلدات، وكان من بينها الكثير من المخطوطات والنسخ اليدوية البوذية التي ازدهرت في الأديرة من مملكة ويي الشمالية (٣٨٦-٥٣٤م) إلى مملكة تانغ.

كما انتشرت أنواعٌ أخرى من الكتب من طريق النسخ باليد، وكان هناك جامعو كتب مثل: **لاي بي** ***Li Pi*** **وسو بين** ***Su Pien*** **وليو كونغ - شو** ***Liu Kung-cho***، يمتلك الواحد فيهم من ١٠,٠٠٠ إلى ٣٠,٠٠٠ نسخة شوان منسوخة باليد في مكتباتهم الخاصة، وكانت حقبة مملكتي سوي وتانغ هي الفترة الذهبية التي توافرت فيها الكتب المنسوخة بخط اليد. ولسوء الحظ فقد تعرّض الجزء الأكبر من تلك الكتب للتلف من جرّاء الثورات والحروب المتعاقبة.

وفي بدايات القرن العشرين الميلادي ألقى اكتشاف آلاف من تماثيل بوذا، في تونهوانغ بمقاطعة كانسو ***Kansu***، الضوء على عدد ضخم من الكتب التي تعود إلى حقبة ما بين القرنين الخامس

والعاشر الميلاديين، والتي تمّ تخزينها هناك منذ القرن الحادي عشر الميلادي. وفي عام ١٩٠٠م وجد الراهب الطّاوي وانغ ***Wang*** غرفة مقفلةً بالشمع فقام بفتحها؛ فاكتشف بداخلها أكواماً من المخطوطات القديمة على شكل لفات طول الواحدة منها عدة أقدام مع أشياء أخرى كثيرة قديمة. ولم يدرك الراهب قيمة تلك الكنوز المخبأة، لَكِنَّ رجلاً إنجليزياً يدعى **أوريل ستين** ***Aurel Stein*** سمع عنها فقام برشوة الراهب عام ١٩٠٧م؛ مما مكنه من الحصول على عدة آلاف من تلك المستندات والمخطوطات والرسومات بثمن زهيد.

وبعد عام قام فرنسي يدعى **پول پيليوت** ***Paul Pelliot*** بعملية رشوة أخرى، وحصل على آلافٍ من تلك المخزونات وأخذها إلى فرنسا. ويوجد الجزء الأكبر من تلك الكنوز المسروقة حالياً في المتحف البريطاني وفي متاحف باريس واليابان.

أما ما تُرك في الكهوف فقد أُرسل إلى بكين عام ١٩٠٩م بأمر من حكومة **مانشو** ***Manchu*** لأجل حفظه بمكتبة **تشينغ شيه** ***Ching Shih*** في بكين (مكتبة بكين حالياً)، وقد بلغت تلك المقتنيات مع الإضافات اللاحقة عشرة آلاف شوان.

ومن ضمن الموجودات التي عُثر عليها في **تونهوانغ** ***Tunhuang*** كتبٌ منسوخة باليد، وكتبٌ مطبوعة، ورسومات، وقوالب خشبية، ومطرَّزات، ومصقولات. وكان من ضمن الكتب المنسوخة يدوياً والمطبوعة: مخطوطات بوذيّة وطاويّة، وأعمالٌ كلاسيكية

كونفوشية، ومخطوطات خاصة بفقه اللغة، والجغرافيا، وكتبٌ طبية، وروايات وقصائد شعبية، ومخطوطات تتعلق بفولكلور مملكة تانغ *Tang*... إلخ. كما كان من بينها أناشيد، ومقطوعات مسجوعة، ومقالات قصيرة، ورسائل، وحسابات، وروزنامات، وسجلات رسمية عن إحصاء السكان، وعقود، ومستندات رسمية وكهنوتية، وكانت بلغاتٍ متعددة: هان (صينية)، وتانغوت، ولغة التبت، واللغة السنسكريتية، ولغة آسيا الوسطى، ولغات أخرى مثل: الخاروشتهاي، والسوغديانيّة، والخوتانيز، والويغور، والكوتشيان... إلخ، وجميع هذه الوثائق كانت مختارات نادرة من مواد قيّمة للبحث في تاريخ العصور المتوسطة للصين وتاريخ آسيا الوسطى ولغاتها.

ولا يوجد أحد قادر حتى الآن على معرفة الحجم الفعلي للمواد المكتشفة، ولكن الكتب المنسوخة باليد – على وجه التحديد – تتضمن نسبة كبيرة جداً تُقدّر بما لا يقلّ عن خمسة وعشرين ألف شوان (لفافة)، ومن بينها أوائل الكتب المنسوخة يدوياً، والتي لا يوجد لها مثيل. كما يوجد بين تلك الكتب روايات وأناشيد وفولكلور، وپين وين *Pien Wen* وتعني: نوعاً من النثر المضمّن أبياتاً من الشعر، وما إلى ذلك؛ والتي من خلالها اكتشفنا طبيعة الأدب الذي كان يهتم به القدماء، كما استفدنا من المواد التي تم اكتشافها – مؤخراً – معرفةً بتاريخ الأدب الصيني، مما ساعد بدوره في تصحيح الأخطاء، وتقدير الأشياء المحذوفة في الكثير

من الكتب المطبوعة وشرح المعاني المضمّنة فيها.

لكن الاكتشافات في تونهوانغ لا تمثل سوى نسبة ضئيلة من النسخ اليدوية التي لا تُحصى، والتي اختفى معظمها، وقد فُقد الكثير من الأعمال التي أُنجزت في عصر مملكتي هان وتانغ إلى الأبد؛ إما بمرور الأزمنة، وإما بفعل الحرائق، وإما بتدميرها جرّاء الحروب والاضطرابات.

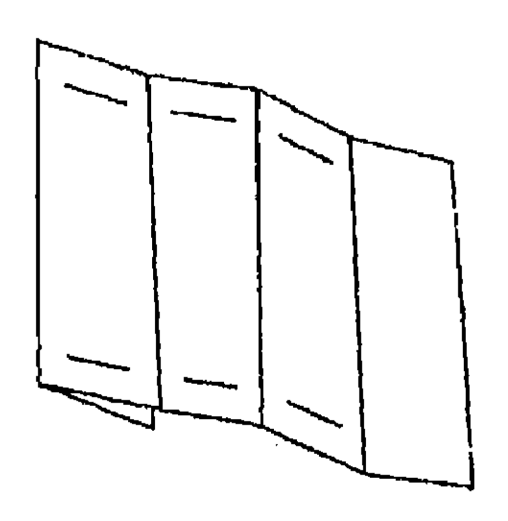
٤- من اللفائف إلى الأوراق:

كان عصر مملكتي سوي وتانغ هو العصر الذي ازدهرت فيه أعمال النسخ اليدوي، والحقبة التي وصل فيها نظام الدرج والقضيب إلى أعلى مستوياته وأكثرها جمالاً. وفي منتصف القرن التاسع الميلادي شهدت الكتب التي تستخدم طريقة اللفّ بعض التغييرات، وبعد اختراع الطباعة حل الورق تدريجياً مكان اللفائف، وبطبيعة الحال كانت هناك فترة انتقالية بين المرحلتين.

وكانت اللفائف طويلة؛ إذ تبلغ - في الغالب - عشرات الأقدام، ولم يكن فردها وطيّها بالأمر اليسير. ولو أن الغرض الاطلاع على جملة مما يحتويه النص، لتطلب الأمر فرد كل اللفافة الواحدة أو معظمها، وبعد القرن السابع الميلادي على وجه التحديد، وهي المرحلة التي تمّ خلالها نشر عدد من القواميس، كان من الضروري تكرار تلك العملية للبحث عن كلمة أو جملة ما، وأصبح الفرد والطي غير ذي جدوى بصورة أكبر مع مرور الوقت.

وقد فكّر أحد المبدعين في طريقة جديدة لتجاوز تلك العقبة؛

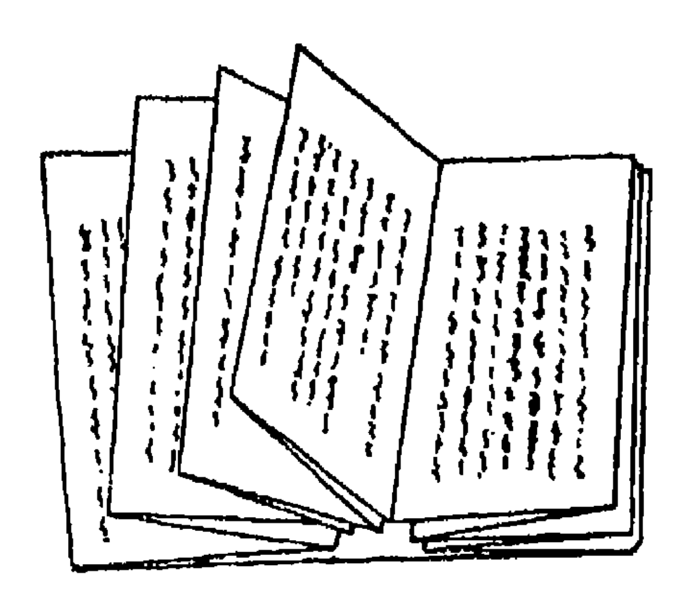
فبدلاً من طريقة اللف يمكن أن يُعمل الكتاب بطريقة أخرى، وذلك بأن تطوى أوراقه لتشكل مجموعة من الأوراق المستطيلة المتعامدة، ولها غطاءان أمامي وخلفي باستخدام الورق السميك، وقد تُصبغ بلون معيّن أو يُجعل عليها قماش لغرض حمايتها، وهذا النوع الجديد يُسَمَّى سوترا ***Sutra***، أو طيّ الكتاب المقدس أو الطي البوذي - الكهنوتي (انظر الشكل ١٤)، ويتم العمل بتلك الطريقة حتى أيامنا هذه بين البوذيين. وباكتشاف تلك الوسيلة الجديدة يمكن للقارئ أن يفتح أية مطوية ويبحث عن أية كلمة أو جملة دون الحاجة إلى فرد الكتاب كلّه، وكانت تلك خطوة عظيمة في اتجاه تطوير شكل الكتاب الحديث.



الرسم التوضيحي ١٤: تغليف السوترا

إلا أن هناك بعض المعوّقات التي نجمت أمام تلك الطريقة الجديدة، فَفَرْدُ ورقة طويلة بهذا الشكل وطَيُّها مراراً يمكن أن يتسبب في فصل بعض أجزائها عن بعض بسهولة، ولتفادي حدوث

ذلك يتمّ إضافة ورقة أخرى إلى المطوية، ويتمّ ثنيها من المنتصف، ويُلصق نصف تلك الورقة على الورقة الأولى ونصفها الآخر في الورقة الأخيرة، وبذلك تُشَدُّ المطوية كلّها معاً؛ مما يمنعها من الانفصال والتمزّق، كما يمكن فرد الأوراق وطيّها مرة أخرى. وكانت تلك الطريقة تسمى «الطي بطريقة الزوبعة أو الريح المدوّمة» (انظر الشكل ١٥).



الرسم التوضيحي ١٥: التغليف بطريقة الزوبعة

وقد ظهرت طريقة سوترا أو طريقة الزوبعة تلك قرابة منتصف القرن التاسع الميلادي، وتكون الورقة المطوية مشابهة لمجموعة من الأوراق معاً، وكان شعب مملكة تانغ يُطلق على هذا الشكل مسمى: طي الأوراق.

ومع أن تلك الطريقة تجاوزت عيوب نظام الدرج والقضيب؛ إلا أنها – بدورها – لم تكن تخلو من عيوب؛ فقد يحدث كسر في

أماكن الطي مع تقادم الزمن. لذا، فالسؤال الذي كان يدور في الأذهان هو: بدلاً من لصق مجموعة أوراق معاً للحصول على ورقة واحدة طويلة، لماذا لا تُجمع الأوراق كل ورقة على حدة وتوضع كلّها في كتاب واحد؟

ومع اختراع الطباعة، كانت الخطوة الطبيعية التالية أن تُجْمَعَ الأوراق في كتاب، وهو الشكل الذي نعرفه في زماننا الحاضر.



الفصل الرابع

الطباعة بالكليشيه (القالب)

١- اختراع القالب

كانت جميع الكتب تُنسخ يدوياً قبل القرن التاسع الميلادي، وإذا تطلّب الأمر وجود مائة نسخة من كتاب ما فإنه يجب أن يُنسخ مائة مرة، وكانت تلك المهمة تستغرق وقتاً طويلاً حتى لو كان المطلوبُ نَسْخُهُ قطعة صغيرة، أمَّا إذا كان الكتاب المرادُ نَسْخُهُ مكوناً من مجلدات فإن ذلك قد يستغرق عدة سنوات لإتمامه.

لذا، كانت عملية تدوير الكتب (انتشارها) بطيئة جداً، وكان الحصول عليها أمراً صعباً، ونتيجة لذلك كان انتشار المعرفة بطيئاً للغاية، وجاء اختراع الطباعة حلاً ناجعاً لتلك المعضلة؛ فمتى توافرت القوالب وكانت جاهزة؛ يمكن الحصول على النسخ المطلوبة مهما كان عددها، ومن ثم صارت القراءة أسهل وأيسر، وأصبح اقتناء الكتب مهيأً لكثير من الناس.

ولاشك في أن هذا الفن من فنون الطباعة - سواءً بالقالب أو بالنمط المتحرك - هو من اختراع الصينيين، ولكن: متى كان اختراع الطباعة بالقالب؟

تختلف الآراء ووجهات النظر حول الإجابة عن هذا السؤال، فبعضهم يعتقد أنها ظهرت في عصر **مملكة سوي *Sui***، وآخرون يعتقدون أنها جاءت في عصر **مملكة تانغ *Tang***، ويدّعي آخرون أن ظهورها الأول كان في عهد **السلالات الخمس الحاكمة** (٩٠٧-٩٦٠م). وتنقض الحقائق وجهة النظر الأخيرة، حيث إن الكتب

المطبوعة في القرن التاسع الميلادي قد تمّ اكتشافها، كما يتعذّر الدفاع عن دعوى ظهورها في عصر مملكة سوي، إذ إن هذا الادعاء مبني على سوء فهم للوثائق.

وليس في مقدورنا، حتى يومنا الحاضر، أن نضع أيدينا على أية مادة مطبوعة في العصور المذكورة. وعموماً، فالعلماء متّفقون على أن هذا الفن قد ظهر في عصر **مملكة تانغ** (٦١٨-٩٠٧م)، ويدعم وجهة النظر تلك ما هو متوافر من موضوعات فعليّة وسجلات موثقة، ولكن يبقى السؤال: في أي زمن من أزمنة مملكة تانغ التي عمَّرت ثلاثة قرون؟

تقدم التحريات والدراسات التي أجريت على المواد المطبوعة في عصر مملكة تانغ، وكذلك فحص سجلاتها، الإجابة عن هذا السؤال:

إن أقدم مواد مطبوعة موجودة ومؤرخة بتواريخ موثقة هي **ديامــوند ســوترا *Diamond Sutra*** (٨٦٨ بعــد الميــلاد)، وكــذلك الروزنامات في ٨٧٧ و٨٨١م، وكانت ضمن آلاف المخطوطات التي اكتشفت في تانهوانغ، وهي تُظهر أن الطباعة كانت مستخدمة في أوائل القرن التاسع الميلادي في الصين.

وهناك وثيقة طولها أربع عشرة قدماً صينية وعرضها قدم واحدة، ويوجد تعليق مكتوب في آخرها يقول: إنها قُطعت في اليوم الخامس عشر من القمر الرابع من السنة التاسعة من عهد **هسين تونغ *Hsien Tung*** (٨٦٨ بعــد الميــلاد). أمَّــا الديامــوند

سوترا، فهي لفافة كاملة بجميع التفاصيل، وتمثل الرموز المرتبة بشكل ممتاز، وكذلك طراوة الحبر، دليلاً على المهارة الفائقة للطبَّاعين. وتُصوِّر لوحة صدر الكتاب المرسومة بوذا وهو يعطي رسالةً إلى حواريّيه (مريديه) السابهوتي في جيتافانا، وكانت اللفافة مكوّنة من ست صفحات مقاس كل واحدة منها قدم صينية بالعرض، وقدمان بالطول محتوية على رموز، وكلها مطبوعة بطريقة القالب (الكليشيه) وبالحجم نفسه، إضافة إلى لوحة صدر الكتاب المصنوعة من الخشب. وقد أُلصقت تلك الأوراق معاً وبالطول نفسه كي تشكل لفافة.

وهذه اللفافة تُعدُّ أقدم كتاب معروف مطبوع بطريقة القالب أو الكليشيه في العالم، فيما تعدّ الصورة أقدم قالب خشبي (الشكل ٧) وهي محفوظة حالياً في المتحف البريطاني. ويثبت اكتشاف دياموند سوترا، ودون أدنى شكّ، أن فن الطباعة بالقالب كان متقدماً جداً في الصين في ستينيات القرن التاسع الميلادي؛ مما يعني أن اختراعها يجب أن يكون قد تمّ في وقت سابق على هذا التاريخ.

وتؤكد الطباعة بالقالب - بصورة غير مباشرة كذلك - أن فنّ الطباعة قد اختُرع في الصين قبل القرن التاسع الميلادي، وقد أمرت الإمبراطورة اليابانية شوتوكو ***Shotoku*** (إمبراطورة داراني ***Dharani***) بعمل نسخة السوترا البوذية التي تحتوي على أكثر من ألف رمز في شكل لفافة، ويُعتقد أن زهاء مليون نسخة قد تمت طباعتها وتوزيعها وحفظها في معابد صغيرة وفي الأديرة، ويمكن

الاطلاع على بعضها في أيامنا الراهنة، ويقال أيضاً: إنها قد طُبعت في سنة ٧٧٠ بعد الميلاد، أي قبل قرابة مائة عام على طباعة السوترا الماسية، وإنها قد طُبعت بشكل غير مُتقن، بما يشير إلى أن هذا الفن في تلك الأيام كان في مراحله المبكّرة.

ولم يذكر التاريخ الياباني اختراع الطباعة على الإطلاق، ولم تشهد الثلاثمائة سنة التي تلت إمبراطورية داراني ***Dharani*** وجود سجلات تدل على وجود الطباعة؛ وعموماً فإن لدى العلماء – بمن فيهم العلماء اليابانيون – وجهة نظر تقول: إن فن الطباعة جاء من الصين. ويتفق هؤلاء العلماء على أن الصين هي من اخترع هذا الفن في حقبة لا تتعدّى منتصف القرن الثامن الميلادي، وقد توصّل العلماء فيما بعد؛ ونتيجةً للجهود والأبحاث؛ إلى أن الطباعة في داراني جاءت متأخرة كثيراً بعد ذلك التاريخ، ولا يوجد – ثمة – ما يدحض الادعاء بأن تكون الطباعة قد اختُرعت في الصين، ولكن لا يوجد ما يؤكد أنها كانت متداولة في الصين في القرن الثامن الميلادي، وهو ما تؤكده سجلات مملكة تانغ. وقد ذكرت سجلات تانغ الطباعة، وأكثر ما يعوّل عليه من تلك السجلات تلك التي كانت كاملة ومذكوراً بها الشهر والسنة التي طُبعت فيها (يناير ٨٣٦م)، وهي ذكرى فينج سو ***Feng Su***، والي مقاطعة تونغ شوان، والتي اقترح فيها عدم السماح بحيازة قوالب الروزنامات بصورة خاصة، وقد أُعلن ذلك في العديد من

المقاطعات (سيشوان حالياً، وكيانغ سو، وأنهوي)، وبأن تباع الروزنامات المطبوعة بطريقة القالب في جميع أنحاء البلاد في كل عام، قبل صدور الروزنامة الرسمية.

وذكر بايي شو **Pai Chu** في مقدمة كتابه: شانغ شينغ شي **Chang Ching Chi**، في يوان تين **Yuan Tien** (وهي الآن فينج سو **Fang Su**) الذي ألفه عام ٨٢٤م، ما يأتي: «كانت الكتب المنسوخة والمطبوعة تباع في السوق»، وفي هذا الكلام دليل على أنه ليست الروزنامات وحدها التي كانت تُطبع فقط؛ ولكن أيضاً مجموعة من المقالات في نهاية القرن الثامن الميلادي.

وفي مقال له ضمن عمله يي مينغ شي **Yi Ming Chi** قال شوكونغ تو **Shukung Tu**: إنه جمع المال ذات مرة لصالح الرهبان في أحد الأديرة من أجل طباعة مخطوطات بوذية. وقد كُتب المقال في المدة ما بين ٨٦٩-٨٨٠م، أي قرب المرحلة التي تمّ فيها طباعة السوترا الماسيّة.

وذُكر بأن الدير قد احتفظ، قبل ذلك الوقت، بمخطوطات بوذية مطبوعة؛ إلا أنها فُقدت عندما حرّم الإمبراطور تانغ وو تسونغ **Tang Wu Tsung** البوذية عام ٨٤٥م. وقد كانت تلك المخطوطات البوذية المطبوعة موجودة في ذلك العام نفسه، وهذا يعني بالتأكيد أنها قد طُبعت قبل ذلك التاريخ.

ويتضح من الحقائق التي ذُكرت آنفاً أن الطباعة بطريقة القوالب كانت - إلى حدٍّ ما - معروفة في أوائل القرن التاسع

الميلادي في الصين، وقد ظهرت سلسلة من الأعمال المطبوعة، مثل: الروزنامات والأعمال الأدبية والمخطوطات البوذية، مع الأخذ في الحسبان أن تدويل أي جديد وانتشاره يستغرق وقتاً.

ومما يؤكد حقيقة أن الطباعة كانت عملاً ممارساً على نطاق واسع، وفي مناطق شاسعة في شيشوان وكيانغسو، ما جاء في فينج سو ***Feng Su*** بأن هذا الفن كان معمولاً به لفترة من الزمن؛ لذا فإن من المنطقي أن يعود اختراع الطباعة وانتشارها إلى القرن الثامن الميلادي إبان عصر الإمبراطورين شونغ تسونغ ***Chung Tsung*** وهسوان تسونغ ***Hsuan Tsung*** من سلالة تانغ، وقد تكون الطباعة ظهرت في مرحلة سبقت ذلك التاريخ.

وقد شهدت تقنية الطباعة التي استُخدمت في طباعة السوترا الماسية وتميزت بالصور المصَدَّرة الرائعة مهارةً فذّةً تجلّت فيها روعة الطباعة بالقالب في منتصف القرن التاسع الميلادي. ولقد كانت هناك نسبة عالية من الكتب المطبوعة متداولة، على الرغم من تفاوت درجات المهارة في تلك المهنة.

وقد قال ليو پين ***Liu Pin*** في مقدمة كتابه شيا هسون ***Chia Hsun*** (القول العائلي المأثور) المؤرخ في ٨٨٣م: إنه رأى العديد من الكتب في مكتبات شينغتو، ومعظمها عن الكهنوت والمعجزات والأحلام وموضوعات أخرى متنوعة، كما رأى كتباً لتعلم الرموز. وكانت تلك الكتب التي أشار إليها كلها كتباً مطبوعة؛ لكن قراءتها كانت صعبة للغاية.

وهنا يبرز السؤال: **من اخترع الطباعة؟**

إننا لا نعرف! ذلك أن اختراع الطباعة - مثله مثل الورق - كان نتيجة للخبرات المتراكمة لكثير من الناس، وبدلاً من نسبة الفضل في ذلك إلى فرد فمن العدل نسبته إلى مجتمع.

وقد نستنتج من شهادات فينج سو ***Feng Su*** وليو پين ***Liu Pin***، وكذلك من سجلات مملكة سونغ أن الطباعة بدأت في شيشوان وما حولها، ونتيجة لذلك ظهر مركز قطع القوالب في بداية عهد مملكة سونغ الشمالية (٩٦٠-١١٢٧م).

ولأجل طباعة كتاب يتطلب الأمر مبلغاً مالياً كبيراً، ولا أحد يرغب في الحصول على كتاب مطبوع ما لم تكن الحاجة إليه ملحّة. ومن بين الكتب المطلوبة على نطاق واسع: الروزنامات وكتب تعليم الرموز، وكانت تلك النوعية من الكتب من أوائل الكتب المطبوعة، أمَّا الكتب الخاصة بالكهنوت والمعجزات والأحلام، فقد كانت ذائعة الصيت؛ مما يعني أن الطباعة كانت على ما يبدو، استجابة لمتطلبات العصر. وعلى كل حال لم يسارع العلماء الذين يتقلدون مناصب رسمية إلى طرح رؤاهم المتحفظة تجاه هذا الفن الجديد، ومن جهة أخرى كان أتباع البوذية يرون الطباعة وسيلة مفيدة في نشر معتقدهم، وقد وظفوا هذا الفن لطباعة مخطوطاتهم بأعداد ضخمة، وهو ما يوضح لماذا كان معظم المواد القديمة المطبوعة من المخطوطات البوذية!! أمَّا عن النصوص الكونفوشية الأرثوذكسية فلم يُطبع منها شيء حتى بداية القرن العاشر الميلادي، وأول ما كان

هذا في شينغتو، تحت رعاية وو شاو ***Wu Chao***، ولاحقاً في كيفنغ تحت رعاية رئيس الوزراء فينغ تاو ***Feng Tao***. ومع ظهور الطباعة في مملكة سونغ وصل هذا الفن إلى أعلى مستوياته.

٢- تطور الطباعة بالقالب:

مع بداية القرن العاشر الميلادي أصبحت الكتب تُطبع بأعداد ضخمة في شيشوان وشيكيانغ، وكانت الأدبيات البوذية تمثل النسبة الأكبر من تلك المطبوعات، وتحت تأثير ذلك شرعت الحكومة في طباعة النصوص القديمة، فكانت الكتب المطبوعة تحت إشراف فينج تاو والأكاديمية الملكية - إبان عصر مملكة سونغ الشمالية - بمنزلة النتيجة المباشرة التي حفزت هذا الفن، وكانت الكتب الحكومية المطبوعة، مثل كتب التصحيح (تصحيح القراءة) - في جوانب معينة - أكثر كفاءة من الكتب المطبوعة من قبل المواطنين، مما أدّى إلى تسارع نمو الصناعة. فقد نشطت المنظمات الحكومية المحلية ومرافق الحكومة المختلفة إلى طباعة الكتب، وكذلك فعلت المدارس والمؤسسات التعليمية بجميع مستوياتها، كما أن الأفراد أيضاً قاموا بطباعة الكتب لغرض البيع، فكان أن ظهرت المحلات المتخصصة في بيع الكتب المطبوعة.

وأصبحت لينان ***Linan*** في مقاطعة شيكيانغ في عصر مملكة سونغ الجنوبية (١١٢٧-١٢٧٩م)، وكذلك شينشو ***Chienchou*** في مقاطعة فوكين، مراكز للطباعة؛ حيث تم نشر جميع أشكال النصوص القديمة والأعمال المعاصرة في ذلك الحين، وكانت

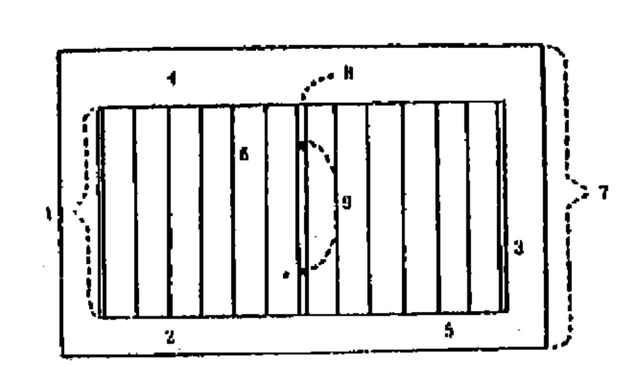
الحقبة من القرن العاشر حتى القرن الثالث عشر الميلادي هي الحقبة الذهبية للطباعة بالقالب (الشكل ٩).

كانت الكتب المطبوعة في تلك الحقبة تعرف بطباعة سونغ، وكانت ذات قيمة عالية؛ إذ كانت هي الأقرب للنصوص الأصلية، لأن نصوصها - في أغلب الأحيان - كانت مأخوذة من النسخ القديمة المكتوبة بخط اليد، والتي خضعت لفحص دقيق. واليوم عندما نحصل على مخطوطات قديمة مكتوبة بخط اليد فإنها ستكون - بلا شك - مادةً قيمة تُمَكِّنًا من دراسة ثقافات العصور القديمة والوسطى، كما يُنْظَرُ إلى تلك المخطوطات، منقوشة ومطبوعة بواسطة ذلك الفن اليدوي الرفيع، على أنها قطعٌ فنيّة رفيعة المستوى.

وكانت القوالب المستخدمة في الطباعة مستطيلة الشكل، بوجه عام، بحجم أقصاه قدم صينية واحدة وست بوصات وعرض ثماني بوصات، وتكون الورقة أو صفحة الكتاب (الشكل ١٦) مطبوعة على جانب واحد فقط، ويُسمى الفراغ المتاخم لخطوط الهامش: وجه القالب، وتكون الأسطر الفردية هي الهامش العرضي، والأسطر المزدوجة هي الهامش الطولي. أمَّا الفراغ الموجود خارج الهوامش فهو الجزء الرئيس العلوي، وهناك الجزء السفلي، وتكون الخطوط المسطرة التي تنظم النص على شكل أعمدة، وهي ما تُسمى: الحدود. وهناك عمودان متقاربان في منتصف وجه القالب، ويمكن طي الورقة عند هذين العمودين المتقاربين ليشكلا صفحتين، ويُطلق عليهما: قلب القالب أو الكليشيه، حيث يوضع عنوان الكتاب، أو

العنوان الجانبي للكتاب، وكذلك رقم المجلد وعدد الصفحات، أو يوضع في بعض الأحيان عدد الرموز الموجودة على الورقة والأسماء المنقوشة. وهناك رمز موجود في الربع العلوي من الهامش في قلب الكليشة، ويُسمى: **ذيل السمكة**. ويوجد في بعض الأحيان رمز آخر في الجهة الأخرى المقابلة؛ أي في الهامش السفلي، ويمكن رسم خط أفقي بدلاً من ذيل السمكة. وفي أحيان أخرى يتم رسم خط في قلب الكليشيه يضم ذيلين للسمكة، ممتدين إلى الهوامش العلوية والسفلية، وإذا كان الخط رفيعاً فإنه يُسمى **الفتحة السوداء الصغيرة**، وإذا كان سميكاً فيسمى **الفتحة السوداء الكبيرة**، وإذا لم يكن هناك خط فيسمى **الفتحة البيضاء**. ولا يزال الشكل الأساس للورقة المطبوعة والمصطلحات الفنية السابقة مستعملين بشكل كبير في الكتب الحديثة المطبوعة باستخدام مكائن الطباعة.

الرسم التوضيحي ١٦: قالب خشبي



١- وجه القالب.
٢- هامش ذو سطر مفرد.
٣- هامش ذو سطر مزدوج.
٤- الرأس العلوي.
٥- الحاشية السفلية.
٦- الحواشي.
٧- وجه الورقة.
٨- قلب الكليشيه (القالب).
٩- ذيل السمكة.

أمَّا الخصائص الرائعة المميزة للطباعة في سونغ الشمالية فهي الرموز ذات البنط الأسود بخطوط قصيرة حرّة ذات فراغات مرتبة، ويكون قلب الكليشيه، الموجود به الفتحة البيضاء، منقوشاً بعدد الرموز الموجودة على الورقة، وكذلك عنوان الفصل ورقمه والأسماء المنقوشة، وفي بعض الأحيان العدد الإجمالي للكلمات، وفي معظم الحالات يكون النص مُطَوَّقاً بخطين مزدوجين. وقد ظهر تدريجياً في مملكة سونغ الجنوبية شكلٌ جديدٌ تبدو فيه الرموز أكثر ألقاً والمسافات بين الرموز أقرب، وكانت الكتب المطبوعة برموز أصغر أكبر عدداً، وقد أصبح استخدام الهوامش ذات السطور المفردة أكثر شيوعاً، وقد حلّت الفتحة السوداء مكان الفتحة البيضاء، وحلّت الخطوط الأفقية مكان ذيول السمك، وقد حُذف عدد الكلمات واسم النحّات، أو أنها كانت تنحت بطريقة معينة عند الطباعة، وذلك بأن تظهر الكلمات باللون الأبيض على أرضية سوداء، وكانت طريقة الفتحة السوداء مستخدمة من قبل الطابعين في مملكتي يوان (١٢٧٩-١٣٦٨م)، ومينغ (١٣٦٨-١٦٤٤م) حتى عصر إمبراطور مينغ: شيا شينغ ***Chia Ching*** (أوائل القرن السادس عشر الميلادي)، حيث أُعيد استخدام نمط رموز مملكة سونغ الشمالية والفتحة البيضاء. وتكمن أهمية الطباعة في مملكة سونغ في أنها أوجدت الأساس التقني لتطوير أشكال متعددة من أنماط الطباعة.

وقد تزامنت، مع البدايات الأولى لظهور الطباعة بالقالب، طريقة نحت الرموز مع حفر الصور، وتقدّم السوترا الماسية التي

تعود إلى عام ٨٦٨م مثالاً رائعاً على ذلك، كما تُقَدِّم الكتب الأخرى، مثل: سان لي توه ***San Li Tu*** وهسوان هو پو كوتو ***Hsuan Ho Po Ku Tu*** وشينغ لي پين تساو ***Cheng Lei Pen Tsao***، صوراً جميلة عن الأشياء القديمة والملابس والأواني، وعن حياة النبات والحيوان. كما أن الكثير من الكتب المشهورة والقصص التي تعود إلى مملكة يوان كانت مزوّدة بالصور، وعلى سبيل المثال كتاب ليه نو شوان ***Lieh Nu Chuan*** (حياة النساء الفاضلات) الذي نشرته دار شين يو تانغ ***Chin Yu Tang***، ويشبه القصّة الشعبية ذات الصور، في أيامنا الراهنة، التي تحوي صوراً في النصف الأعلى من كل صفحة، بينما تحتوي على النص في النصف الأسفل، وتظهر تلك الصور براعة تلك الحرفة.

كما احتوى كتابا: تا كوان پين تساو ***Ta Kuan Pen Tsao***، وپي يونغ پين تساو ***Pei Yung Pen Tsao*** المطبوعان في العهد الذهبي للتارتاريين (١١١٥-١٢٣٤م) على صور جميلة أيضاً. غير أن تلك الحرفة لم تصل إلى أوجها إلا عند حلول عصر مملكة مينغ، حيث بلغت حرفة النحت على الخشب ذروتها، وكانت الأعمال الأدبية، مثل: الروايات، والمسرحيات تعجُّ بالصور التي تتسم بالروعة، وتصل في بعض الأحيان إلى المئات. وعلى سبيل المثال نجد أن إحدى طبعات مينغ عن كتاب سان كو ين ***San Kuo Yen*** (رومانسيات الملكات الثلاث) يتضمن ٢٤٠ صورة فاخرة، وقد طبعت دور نشر، مثل: فو شون تانغ ***Fu Chun Tang*** ووين لين كو

Wen Lin Ko وشي شيه شاي *Chi Chih Chai*، الكثير من الأساطير والقصائد الغنائية المنوعة، وتحوي تلك الأعمال صوراً كثيرة.

وكان معظم المنحوتات أصله من هويشو *Huichou*، مقاطعة أنهوي، والتي كانت في مرحلة من المراحل مركزاً لقطع الأخشاب ونحتها. وإلى جانب الأعمال الأدبية هناك أعمال أخرى، مثل: كتب الهندسة والعمارة، وكانت تحوي صوراً وجداول وتصاميم، ومثال على ذلك فإن كتاب ينغ تساو فا شيه *Ying Tsao Fa Shih* (أنماط البناء)، وهو من مطبوعات سونغ، وكتاب مو پو *Mo Po* الذي ألفه فانغ يو - لو *Fang Yu-Lu*، وكتاب مو يوان *Mo Yuan* الذي ألّفه شينغ شونغ - فانغ *Cheng Chun-fang* من مطبوعات مينغ، تحتوي جميعها على صور رائعة، وهذا التقليد من التصوير الإيضاحي الرفيع والرائع ظلّ موجوداً حتى القرن الثامن عشر الميلادي (الرسم البياني ١١).

واستمرت الكتب خلال حقبة مملكة شينغ في احتوائها على الرسوم الفنية، مثل كتاب: تو شو شي شينغ *Tu Shu Chi Cheng* المطبوع في عصر كانغ هساي، والذي يضم صوراً لأشخاص وأدوات ومخططات هندسية، وكذلك الكتابان اللذان ألفهما هسياو يون - تسونغ *Hsiao Yun-tsung*، وهما كتاب: لي ساو شوان تو *Li Sao Chu-an Tu* وكتاب: شو شيه تونغ كاو *Shou Shih Tung Kao* من مطبوعات البلاط إبّان عهد شين لونغ.

وفي القرن الرابع عشر الميلادي شهدت الطباعة بالقالب خطوة مهمة في اتجاه تطويرها، هي اختراع الطباعة بالألوان

المتعددة. ويُعَدُّ كتاب **ملاحظات حول السوترا الماسية** الذي طُبع في العام ١٣٤٠م أقدم كتاب موجود استخدم تلك الطريقة، وكان النص مطبوعاً بالحبر الأحمر والملاحظات بالأسود. وكانت لوحة صدر الكتاب والزخرفة بالأحمر والأسود كذلك.

ولا شك في أن الطباعة بالألوان المتعددة هي نوعٌ من الفنون المركبة؛ إذ تتطلب تلك الحرفة اليدوية دقة بالغة، وكلما زاد عدد الألوان دلّ ذلك على المهارة الأساسيّة الفائقة. وقد بدأت الطباعة بالألوان بلونين اثنين هما: الأحمر والأسود، ومع نهاية القرن السادس عشر الميلادي أصبح هناك خمسة ألوان مستخدمة في الطباعة، وأصبح هناك الكثير من الطابعين المهرة المحترفين في هذا الفن، إبّان حقبة مملكة مينغ في عهد الإمبراطور شين تسونغ، كما أحرزت مملكة شينغ (مانشو) (١٦٤٤-١٩١١م) تقدماً كبيراً في هذا الميدان.

والطباعة بالألون والقالب هي طريقة مزدوجة من الطباعة ونحت الخشب، وهناك مثال رائع يعكس جمال هذا الفن يتمثل في أعمال شيه شو شاي هوا پو ***Shih Chu Chai Hua Pu***، وهي مجموعة من الصور الزيتية، وكذلك أعمال شين پو ***Chien Pu***، وهي مجموعة من الصور، وكل قطعة من تلك الأعمال تُعد تحفة متكاملة، ويظهر فيها الكثير من الألوان والأشكال المختلفة، كما يمكن مقابلة الطباعة بالألوان والقالب بالطباعة الحديثة بالألوان على نحو متقارب.



النمط المتحرك للطباعة

١- اختراع النمط المتحرك

اختُرع النمط المتحرك للطباعة - مثله مثل الطباعة بالقالب - من قِبَلِ الصينيين، وتدل الإثباتات المتواترة على ذلك، ولا يكاد يوجد سبب للتشكيك في هذا الأمر. وكما هو الحال مع الطباعة بالقالب نجد أوروبا قد تأثرت بالصين في ميدان الطباعة بالنمط المتحرك.

وكما ذُكر؛ فقد اختُرعت الطباعة بالنمط المتحرك في الصين، وذلك في القرن الحادي عشر الميلادي من قبل عامل يدعى پاي شينغ ***Pi Sheng***. ولا نعرف عن تاريخه إلا القليل، أما طريقته فقد حُفظت ووصلت إلينا من طريق كتاب اسمه مينغ شاي پاي تان ***Meng Chi Pi Tan*** (مقالات من حلم الإغريق) كتبه شين كوا ***Shen Kua*** (١٠٣٢-١٠٩٦م)، وهو من علماء مملكة سونغ. وقد وصف فيه طريقة الطباعة بالنمط المتحرك كما يأتي:

«خذ صلصالاً لزجاً، وقم بتشكيله مثل رموز رفيعة وبما يماثل حافة عملة نقدية صغيرة، ومن ثَمَّ تشكيل كل رمز كما لو كان وحدة مفردة مستقلة. ثم ضع الرموز في النار كي تصبح صلبةً. ثم قم بإعداد صفيحة حديدية، وغطِّها بخليط من الراتينج، وهي مادة صمغية مستخلصة من شجر الصنوبر والشمع ورماد الورق. بعدها قم بعمل إطار

حديدي بحجم النصّ، ثم ضع الإطار على اللوحة وَرَكِّب الرموز المطبوعة عليها حتى يمتلئ الإطار، ثم ضع اللوحة قريباً من النار بغرض تسخينها، وعندما يذوب الشمع خذ لوحاً ناعماً جداً وقم بحكٍّ اللوحة بلطف على السطح، وبذلك يكون وجه الرموز المطبوعة متساوياً، عندها تؤخذ اللوحة بعيداً لكي تبرد، وتكون الرموز الصلصالية قد ثبتت على اللوحة، وأصبحت جاهزة للطباعة. وعند استخدام لوحتين بالتناوب تكون الأولى جاهزةً ومركباً عليها الرموز، والأخرى تكون مطبوعة، وبذلك يكون معدّل الطباعة أسرع. وإذا تطلب الأمر وجود أي رمز لم يتم تشكيله مسبقاً فيمكن نحته وتركيبه في الحال، وعند إتمام الطباعة يُعاد تسخين اللوحة، ويتم إنزال الرموز الصلصالية المطبوعة لعملية طباعة أخرى».

تلك كانت الطريقة الأقدم للطباعة بالنمط المتحرك، وتبدو - موازنةً بطريقة الطباعة بالنمط المتحرك الحديثة في أيامنا هذه - بدائية وتفتقر إلى البراعة، لكن الأسس التحتية للسبك (صبّ الحروف) والتنضيد والطباعة كانت موجودة مسبقاً، وكانت التقنية فقط هي ما يحتاج إلى تطوير.

وعلى كل حال، فلم يمكن توظيف الطباعة المتحركة على نطاق واسع في الصين بعد اختراعها مباشرة، إذ كانت الطباعة بالقالب - في ذلك الحين - لاتزال مهيمنة؛ وذلك لأن الطباعة المتحركة

تستغرق وقتاً أطول في التنضيد، وكانت مناسبة - فقط - في حالة الرغبة في طباعة نسخ بأعداد ضخمة.

ويقول شين كوا ***Shen Kua*** في معرض مدحه لتلك الطريقة: «إذا أراد شخص أن يطبع نسخة أو نسختين فقط، فإنه ليس من السهل ولا المناسب استخدام الطباعة المتحركة، إذ إنها مناسبة - فقط - لطباعة مئات أو آلاف النسخ، كونها سريعة على هذا النحو بشكل مذهل».

وكانت القراءة في المجتمع الإقطاعي من الامتيازات التي يتمتع بها القليلون، وكان الطلب على كتاب معيّن في فترة من الفترات محدوداً تقريباً، وكان انتشاره بطيئاً. وفي حال طباعة آلاف النسخ، فستمر السنون قبل أن تباع تلك النسخ، وبذا لن تكون ذات مردود اقتصادي، ولا يوجد ناشر يرغب في القيام بذلك، كما لن يكون من المناسب اقتصادياً - وعلى نحوٍ مساوٍ - لو تمّ طباعة عدد محدود، إذ يتطلب الأمر إعادة تنضيد الرموز لغرض الطباعة كلما نفدت الكمية.

ولا توجد تلك المشكلات مع الطباعة بالقالب، إذ يمكن الاحتفاظ بالقالب (الكليشيه) بصورة دائمة؛ مما يعني إنتاج أية كميات مطلوبة حسب الحاجة، كما لا توجد مخزونات متراكمة ولا مشكلات في إعادة تنضيد الرموز؛ لذا يُفضِّل أغلب الناشرين الطباعة بالقالب. ولأن الذين يقرأون من العامّة قليلون؛ فقد كان استخدام الطباعة المتحركة - من ثم - محدوداً.

٢- تطوّر الطباعة بالنمط المتحرك:

على الرغم من أن الطباعة بالنمط المتحرك لم تكن مستخدمة على نطاق واسع كما هي الطباعة بالقالب، إلا أنها شهدت نمواً وتطوراً مع مرور الوقت، ويقال: إن الكثير من الكتب طُبع بالنمط المتحرك خلال حقبة مملكة سونغ، ولم تكن هناك طريقة أخرى تمّ توظيفها في هذا المجال غير تلك التي استخدمها **باي شينغ *Pi Sheng***، ويمكن التوصل إليها من خلال السجلات.

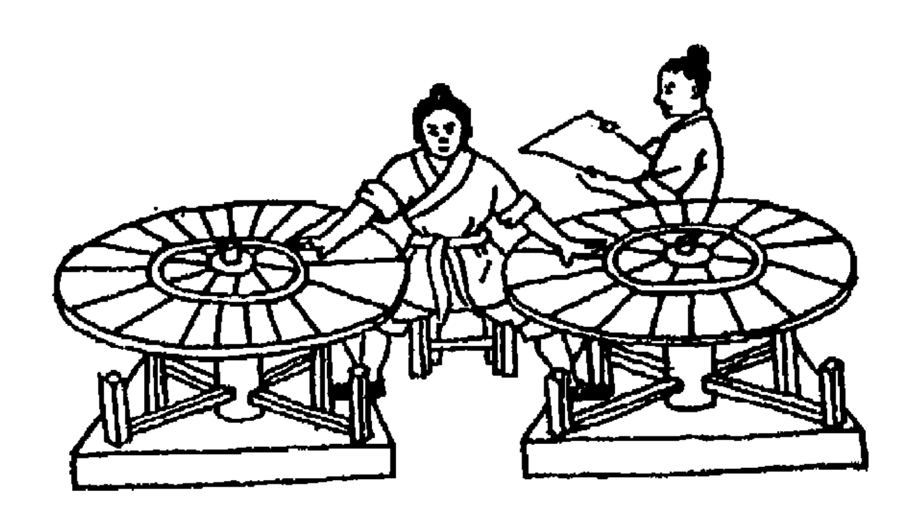
وقد تمّ تحقيق بعض التقدم في فن الطباعة بالنمط المتحرك إبّان حقبة مملكة يوان، وقد استُخدم القصدير لعمل النمط المعدني، لكن أداءه لم يكن بالشكل المطلوب، إذ إن القصدير لا يمتص الحبر مما جعل استخدامه غير عملي، ولا يوجد أدنى شك في حقيقة استخدام النمط المعدني في الصين في القرن الميلادي الثالث عشر. وقد أوجد وانغ شين ***Wang Chen*** النمط الخشبي في عهد مملكة يوان، وكان ذلك تطوراً عظيماً، وطريقته على النحو الآتي:

«يتم نقش الرموز على القالب الخشبي، ثم يُقطع النقش بمنشار خشبي خاص ذي أسنانٍ صغيرة بحيث يشكل كل رمز قطعة منفصلة، ثم يتم تشذيب تلك القطع المنفصلة بسكين من جوانبها الأربع، وتُوازَنُ جميع تلك القطع وتُفحص للتأكد من أنها جميعها بنفس الحجم والطول. وعند التنضيد توضع الرموز على أعمدة، ويتم ضغط شرائح من الخيزران

فيما بينها، وعند تركيب الرموز كلها على القالب يتم ملء الفراغات بسدادات خشبية. وبذلك يثبت الرمز بشكل تام دون أن يتحرك، ثم يُصب الحبر على الوجه وتبدأ عملية الطباعة».

وقد وصف وانغ شين المقاس المعياري للنمط المتحرك لأغلب الرموز الشائعة التي تُصنع بأعداد كبيرة، كما أوجد وسيلة لنمط التنضيد تجعل من عملية الانتقاء وجمع الحروف خطوة أسهل، وتلك الوسيلة تتمثل في طاولة كبيرة دوّارة مصنوعة من الخشب الخفيف قطرها حوالي سبع أقدام صينية، وذات محور طوله ثلاث أقدام قد رُكِّب فوق حفرة مركزّية على قاعدة خشبية ضخمة معزّزة بدعامات خشبية. ويوجد على الطاولة إطار دائري من الخيزران تُحفظ فيه الرموز. وتلك الطاولة مقسّمة إلى عدّة حجيرات - حسبما ذكر كتاب (السجع) - ويتم ترقيم الرموز طبقاً للقصائد المسجوعة وتوضع في الحجيرات المناسبة، وتوضع الرموز الشائعة في طاولة أخرى من الحجم نفسه؛ بحيث يكون هناك أكثر من ٣٠,٠٠٠ رمز على الطاولتين، ويجلس بينها شخص يقوم بتدويرهما؛ إما لليمين وإما لليسار؛ لعمل الطباعة المرغوب فيها. ويقوم شخص آخر بحمل القائمة التي تحتوي على القصيدة، ويصيح بالرقم في إشارة إلى الرمز المطلوب (الشكل التوضيحي ١٧)، ويقوم الشخص الأول بأخذ الرمز من الحجيرات التي توجد فيها رموز القصيدة

ويضعه مباشرة في الإطار.



الرسم التوضيحي ١٧: نمط التنضيد في الطاولات الدّوارة

بعد ذلك تأتي العملية التالية، التي كان يُستخدم فيها قالب ناعم ومستقيم وجافّ يمثّل أبعاد الكتاب، وله حرف - أو حدٌّ - على ثلاثة جوانب من جوانبه الأربعة؛ بحيث يُترك جانب واحد مفتوحاً حتى يتم ملء الإطار، ثم يُجعل لذلك الجانب حرفٌ أيضاً ويُربط بإحكام بسدّادات خشبية، ويجب أن تكون الرموز داخل الأعمدة متساوية تماماً، ولهذا الغرض كانت تُستخدم شظايا الخيزران من جميع الأحجام، وإذا لم يقف الرمز بشكل متساوٍ تماماً في القناة يتم تثبيته بسدادات الخيزران التي تُدخل عليه، ولا تبدأ عملية الطباعة حتى يصبح النمط متساوياً بشكل كامل وثابتاً تماماً.

كان ذلك هو إسهام وانغ شين الجديد في مجال الطباعة بالنمط المتحرك، وقد تم تجريب طريقته تلك في مطبوعات

سجلات مقاطعة شينغ تيه ***Chingteh***، وبدت نتائجها جديرة بالثناء.

واليوم نجد الطباعة باستخدام التنضيد اليدوي هي ذاتها - في الأساس - كما وصفها وانغ شين.

وامتدت الطباعة بالنمط المتحرك على نطاق شاسع إبان حكم مملكة مينغ، وكان النمط في بعض الأحيان مصنوعاً من الخشب وأحياناً من النحاس (الشكل ١٠)، وأشهر بيوتات الطباعة كانت: كيوي پو كوان ***Kwei Po kuan***، وهوي تونغ كوان ***Hui Tung Kuan***، ولان هسويه تانغ ***Lan Hsueh Tang*** من ووسيه ***Wusih*** (بمقاطعة كيانغ سو)، وجميعها كانت تستخدم النحاس. ولسوء الحظ لم تُسجَّل طريقتهم، ولا توجد سبيل لمعرفة كيفية تطويرهم تلك التقنية. وكانت الطباعة بالنمط الخشبي المتحرك مستخدمة في القرن السابع عشر الميلادي في طباعة تاي پاو ***Ti Pao***، وهي مجلة رسمية في بلاط مملكة مينغ.

وكان النمط النحاسي المتحرك مستخدماً في عهد الإمبراطور كانغ هساي ***Kang Hsi***، إمبراطور مانشو (القرن السابع عشر الميلادي) في طباعة كو شين تو شو شاي شينغ ***Ku Chin Tu Shu Chi Cheng*** أي: «مختارات من الكتب القديمة والحديثة»، لكن تلك الطريقة أيضاً لم تُعرف تفاصيلها كذلك. وشهد العصر التالي للإمبراطور شين لونغ ***Chien Lung*** (القرن الثامن عشر الميلادي) استخدام خشب النخل لعمل النمط الذي كان يُستخدم في طباعة

الكتب النادرة التي أُخـذت من يونغ لو تا تين *Yung Lo Ta Tien* (دائرة معـارف يونغ لو)، وكـانت تلك الكتب تسـمى «الطبعـات النفيسة المختارة».

وكانت تلك الصنعة برمّتها تحت رعاية شن شين *Chin Chien* الذي ألف كتاباً سمّاه شو شين پان شينغ شيه *Chu Chen Pan Cheng Shih*، شرح فيه الطريقة بتفاصيل دقيقة. وقد استخدم شن شين بدلاً من الطاولات الدّوارة عشرة صناديق خشبية كل واحد منها يحتوي على ثمانية إلى عشرة أدراج مقسّمة إلى عشرات من الحجيرات الصغيرة.

وكان النمط الخشبي يُحفظ في الحجيرات طبقاً للقوافي الشعرية، ويتولى اثنان من الرجال مهمة تنضيده، ويتولى أربعة آخرون النمط الخاص بأربع من القوافي، ويقوم المنضّدون بقراءة المخطوطة، ويطلبون الرموز من الأشخاص المسؤولين عن القافية؛ الذين يخرجونها بدورهم ويسلّمونها إليهم ليقوموا بالتنضيد.

ويقـول شن شين: «من السـهل أن تقـوم بعـملية التـدقـيق والتنضيد بسرعة»، وقد استخدم تلك الطريقة لطباعة مئات من الكتب بأنواعها المعروفة في وو ينغ تين شو شين پان تسونغ شو *Wu Ying Tien Chu Chen Pan Tsung Shu*، والمعروف أن وو ينغ تين هي إحدى الصالات في القصر الإمبراطوري، وكانت تُستخدم مكتباً عاماً للطباعة في بلاط مانشو.

كما كان النمط الخشبي المتحرك مستخدماً خارج البلاط إبّان حكم مملكة شينغ، وعندما جاء النظير الغربي لهذا الفن إلى الشرق في منتصف القرن التاسع عشر الميلادي طوّر الطابعون الصينيون طريقتهم القديمة مستخدمين النمط الرصاصي بدلاً من الخشبي، وبذلك وُلدت الطباعة الصينية الحديثة.

٣- انتشار الطباعة بالنمط المتحرك:

انتشر الأسلوب الصيني في الطباعة بالنمط المتحرك أولاً إلى كوريا، حيث تم إقرار النمط النحاسي في الطباعة في القرن الخامس عشر الميلادي، وقد أُدخلت التحسينات الفنية عليه من قبل الأجيال المتعاقبة. واليوم، ولجميع محبي الكتب، لا تزال الكتب الكورية القديمة المطبوعة بالنمط النحاسي المتحرك تُشكل مواد ذات قيمة عالية.

وتعلم اليابانيون فن الطباعة بالنمط المتحرك من الكوريين، وقد طُبع الكتاب الأول كو وين هسياو شينغ ***Ku Wen Hsiao Ching*** عام ١٥٩٣م بالنمط المتحرك في محاكاة للنمط النحاسي الكوري.

وفي أوروبا يُقال إن الطباعة بالنمط المتحرك اختُرعت من قبل الألماني غوتينبرغ ***Gutenberg*** قرابة عام ١٤٥٠م، وقد منحه العلماء الأوروبيون والأمريكيون فضل السبق في هذا الإنجاز، ولكن – حسب علمنا – فقد كان بين الصين وأوروبا اتصالات مستمرة من طريق الشرق الأوسط في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين، وقد جلب الصينيون معهم طريقة

الطباعة بالقالب، مما يعني أن الطباعة بالقالب في الشرق الأوسط جاءت من الصين.

ويُثبت حقيقة توظيف الطباعة الصينية في بلاد فارس في أوائل القرن الثالث عشر الميلادي أن المنغوليّين الذين حكموا بلاد فارس أصدروا عملة نقدية ورقية تتميز بوجود حروف صينية وعربية عليها، كما كان يوجد على الختم الإمبراطوري لحكام فارس رموز صينية. وفي نهاية القرن الثالث عشر الميلادي ذكر رشيد الدين، رئيس وزراء فارس في كتابه «التاريخ العالمي العظيم»، الطباعة الصينية بالقالب، وقال في سياق حديثه:

«رغب الصينيون في نشر الكتب القديمة، وكانوا يطلبون من الخطاطين، عندما يختارون كتباً قديمة للطباعة، أن يقوموا بنسخ الكتب الأصلية على قوالب خشبية، وبعد فحص النص بدقة يتم قطع القوالب من قبل نحّاتين مهرة، ثم تُرَقَّم القوالب وتُرتب حسب النص. وتحتفظ السلطات بتلك الكتب المطبوعة، ويتقدم الناس بطلباتهم للاطلاع عليها».

وبطبيعة الحال فإن كتاب رشيد هذا قُرئ على نطاق واسع، ومن غير المقبول أن يكون الأوروبيون قد عجزوا عن استقاء المعلومة منه فيما يتعلق بالطباعة الصينية بالقالب، لذا، ودون أدنى شك، فإن الطباعة بالنمط الخشبي لم تظهر إلا في القرن الرابع عشر الميلادي، أمّا الطباعة بالنمط المتحرك فقد كان

شعب الـ ويغور ***Uighur*** في سينكيانغ يستخدم تلك الطريقة لطباعة الكتب بلغته في أوائل القرن الرابع عشر الميلادي. وأمَّا بلدان الشرق الأوسط كله - على حدٍّ سواء - فقد تعلّمت الطباعة بالنمط المتحرك من الويغوريّين، ومن الطبيعي أن يكون المسافرون والتجار الأوروبيون، الذين كانوا ينشطون في تلك الأيام في الشرق الأوسط، قد أخذوا معهم طريقة الطباعة تلك إلى بلدانهم، وهي نقطة أشار إليها **كارتر** في كتابه «اختراع الطباعة في الصين وانتشارها غرباً»(*).

وخلال حقبة مملكة يوان، عندما كانت الاتصالات بين الصين وأوروبا قائمة ومستمرة، انتقلت أشياء كثيرة من الصين إلى أوروبا، ومن المرجّح بقوة أن تكون الطباعة الصينية بالنمط المتحرك - بوصفها أحد أهم المخترعات - قد وجدت طريقها إلى أوروبا في ذلك الوقت، ويبدو فعلياً أن غوتينبرغ لم يفعل شيئاً سوى تطبيق المبدأ الصيني على الحروف الهجائية الألمانية، مع القيام ببعض التحسينات التقنية.

وكانت أوروبا حينها في مرحلة حاسمة للانتقال من الإقطاعية إلى الرأسمالية، وذلك في مستهل عصر النهضة الذي نتج منه ظهور العلوم الطبيعية والاختراعات التقنية؛ مما جعل

(*) توماس فرانسيس كارتر: اختراع الطباعة في الصين وانتشارها غرباً. مطابع جامعة كولومبيا، نيويورك، ١٩٢٥م.

الطبقة البورجوازية الناشئة تلح في مطالبها باقتناء الكتب ورغبتها في الاطلاع على المعرفة، وهذا بدوره أعطى دفعة باتجاه تطوير الطباعة بالنمط المتحرك، حتى وصلت تلك الصناعة إلى مراحل متقدمة مدعومة بعلوم الميكانيكا في القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين.



الفصل السادس

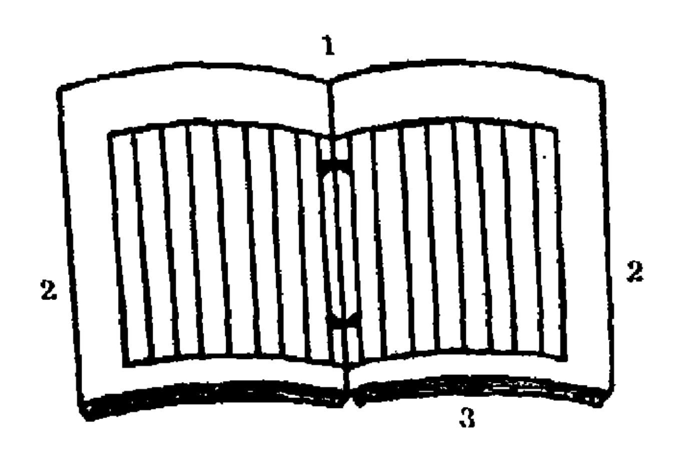
الكتب بعد اختراع الطباعة

١- شكل الكتاب المجلّد:

مع اختراع الطباعة بالقالب لحق شكل الكتاب تغيير آخر، فقد حلّ الكتاب المجلد محلّ اللفافة، وظل هذا الشكل الأساس للكتاب منذ ذلك الحين. ولكن الكتب لم تأخذ شكلها الحالي بين يوم وليلة، فقد كان أقدم كتاب مطبوع وهو السوترا الماسية - ٨٦٨م في شكل لفافة، وقد استغرق تغيير شكل الكتاب من اللفافة إلى الكتاب المجلد مئات السنين.

في المرحلة الأولى من الطباعة بالقالب كانت الأوراق تُلصق معاً لتشكل لفافة (أقدم ورقة مطبوعة لم يكن بها هوامش من اليمين واليسار). بعد ذلك، ولصعوبة التعامل مع مجموعة الأوراق، تبوّأ شكل اللفافة مكانة، وكذلك جمع الأوراق بطريقة الدّوامة. ولكن، كان من السهل أن يحدث كسر للكتب المجموعة بطريقة الدوامة عند نشرها أو طيها، وقد فكر شخص ما في نهاية القرن العاشر الميلادي في طريقة جديدة يتمّ فيها لصق الشرائح أو الأوراق جهة اليمين، وبذلك لا تتبعثر الأوراق حتى لو انكسرت. وبما أن الطباعة كانت على وجه واحد من الورقة؛ فإن الجانب غير المطبوع يظهر عندما تتكسر الورقة، لذلك تم التوصل إلى وسيلة جديدة هي: «التجليد بطريقة الفراشة»، بحيث يتم طي الأوراق من منتصف الجهتين المطبوعتين لنفس الورقة «وجهاً

لوجه»، بينما توضع الصفحات غير المطبوعة «ظهراً لظهر» بالنسبة إلى صفحات الأوراق التالية، ويتم لصق الخطوط المركزية عند حدّ طي الأوراق بالغطاء الخارجي الذي يجلد الكتاب، وعند فتح الكتاب للقراءة تظهر الورقة كلها التي تتضمن النص، بينما تبقى ملتصقة بالمركز في الخلف مثل الفراشة بأجنحتها المفرودة، وقد ظهر أول شكل لنموذج الفراشة على النحو الظاهر في (الرسمين التوضيحيين ٨، ١٨).



الرسم التوضيحي ١٨: التغليف بطريقة الفراشة:

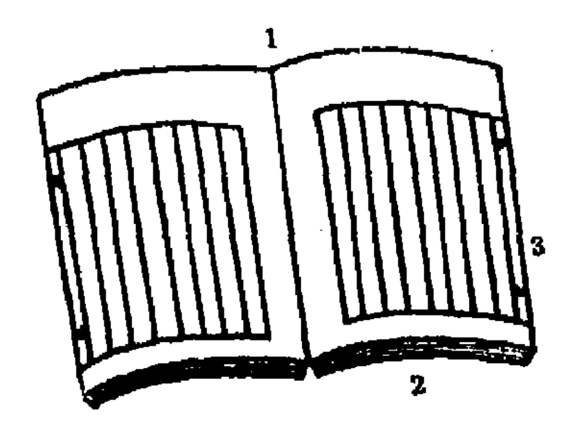
١- قلب الكتاب.

٢- فم الكتاب.

٣- جذر الكتاب.

ولكون التغليف بطريقة الفراشة سميكاً وصلباً، كان يُستخدم له الورق المقوى كغطائين أمامي وخلفي، وفي بعض الأحيان يتم استخدام القماش أو القماش المطرّز مع الورق المقوى بشكل يشابه - إلى حدٍّ ما - التغليف الحديث باستخدام القماش، ويسمى

الجـزء الملصق من الأوراق بالغـلاف: «خلفيـة الكتـاب»، ويسـمى الجزء غير الملصق أو الحُرّ: «فم الكتاب»، ويسمى الجزء العلوي: «رأس الكتـاب»، والجزء السفلي: «جذر الكتاب». وعند وضع تلك الكتب على الرف فإنها توضع على الفم وتُجعل جهتها الخلفية للأعلى. وهناك عيب واحد في طريقة التغليف هذه، وهي أنه بعد الانتهاء من قراءة صفحة واحدة (من الجهة المعاكسة لورقتين) يجب على القارئ أن يُقَلِّبَ صفحتين فارغتين لأجل الوصول إلى الصفحتين التاليتين المطبوعتين، وكان تطوير هذا الجانب ضرورة ملحّة. وإذا ما طُويت الصفحات من المنتصف فإن الرموز تظهر من الخارج، وإذا تمّ لصق الهوامش من الخلف يمكن للقارئ أن يقرأ دونما حدوث انقطاع. وقد ظهرت طريقة جديدة عُرفت بطريقة «التغليف الخلفي» متخطّية مواطن النقص كلها في التغليف بطريقة الفراشة، وحلت مكانها بصورة كاملة.



الرسم التوضيحي ١٩: التغليف الخلفي:

١- ظهر الكتاب. ٢- جذر الكتاب.

٣- فم الكتاب.

وكانت طريقة التغليف الخلفي أقرب إلى تغليف الورق في أيامنا هذه (انظر الرسم ١٩).

وفي البداية كانت الكتب المجلّدة بالورق المقوّى تُوضع فوق الرفوف بالطريقة نفسها التي توضع بها الكتب المجلدة بطريقة الفراشة، ولكن «فم الكتاب»، الذي هو قلب النصّ، كان يحتكّ بالرفوف مما يؤدي إلى تلفه بسرعة، ولتحاشي ذلك وُضعت الكتب بشكل مسطح على الرف. ولم يدم استخدام الغلافات الصلبة طويلاً، إذ حلّت مكانها الأغلفة الرقيقة.

وكلتا الطريقتين تتطلب الكثير من أعمال اللصق التي تستغرق الكثير من الوقت، لذلك أُدخلت التحسينات على طريقة التغليف بالورق المقوّى مع مرور الوقت.

أمّا الهوامش في هذا النوع من التغليف فقد تميّزت بالاتساع، وهي نفسها التي تُستخدم ويُستفاد منها الآن. وهناك ثقوب صغيرة على امتداد تلك الهوامش يوجد بها «خيط» يُمدُّ عبر تلك الحفر أو الثقوب ويُربط بها، وبذلك لا تنتثر الأوراق. ويتم بعدها تغليف الكتاب بحيث يبدو كأنه حزمة واحدة كما يكون الخيط مُغطًى تماماً. ولقد ظلت تلك الطريقة هي الشائعة إبان عهد مملكتي يوان ومينغ.

في منتصف عهد مملكة مينغ ظهرت طريقةٌ جديدة للتغليف هي «التثبيت بالخياطة»، ويبدو أن هذه الطريقة كانت مستخدمة في وقت مبكر جداً، ويقال إن بعض النسخ المخطوطة باليد

التي تمّ اكتشافها في تونهوانغ كانت مثبتة بطريقة الخياطة، لكن تلك الطريقة القديمة ليست معروفة لدينا بالتفصيل.

وقد استُخدمت تلك الطريقة أولاً خلال حقبة مملكة مينغ في القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين، وكانت طريقة التغليف تتم باستخدام ورقة واحدة توضع في ظهر الكتاب، ويتم ترتيب الأوراق بعناية تامة بحيث يكون قلب النص والهوامش السفلية مرتبةً على التوالي.

ويوضع غطاء في الوجه وآخر في الخلف، أمَّا الجوانب الثلاثة فيما عدا الفم (أي: قلب النص) فيتم تشذيبها، وتكون الثقوب – وعادة ما يكون عددها أربعة وأحياناً ستة أو ثمانية حسب حجم الكتاب – موجودة على طول الهامش من أجل إتمام عملية الخياطة من خلالها؛ مما يؤدي إلى ربط الكتاب. أمَّا الكتب ذات الأحجام الاستثنائية فتكون مربوطة عبر الزوايا بقماش مطرّز لمنع حدوث تلفٍ نتيجة الاحتكاك، وعند إعادة ربط كتاب قديم يتم إدخال ورقة جديدة بين كل صفحتين من كل ورقة، وقد بقيت الكتب المربوطة بطريقة الخياطة هي الشكل السائد منذ القرن الرابع عشر الميلادي حتى اليوم (الرسم التوضيحي ٢٠).

وتكون الأمور أكثر صعوبة في المكتبات، حيث تُستخدم الكتب بصورة متكررة، وبناءً عليه يتم وضع الكتب المثبتة بالخياطة في علب من ورق الكرتون، وأحياناً تُلفّ بقماش، وبذلك يمكن أن تصمد في وضع أفقي على الرف. ولقد أصبحت تلك العلب، أو

الشكل التوضيحي، ٢٠: التثبيت بالخياطة:

١- رأس الكتاب.

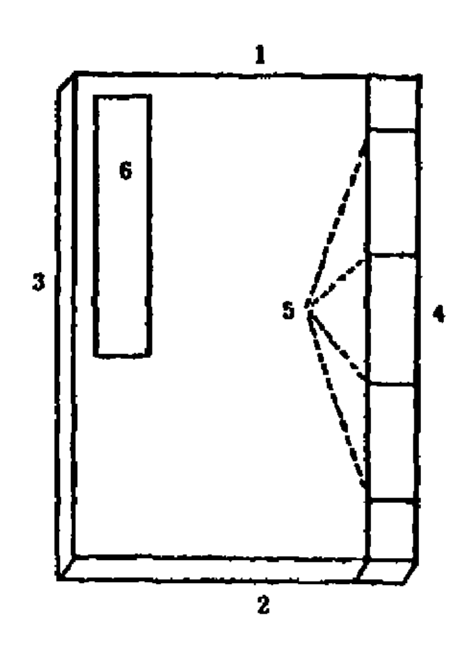
٢- جذر الكتاب.

٣- فم الكتاب.

٤- ظهر الكتاب (الكعب).

٥- ثقوب دخول الإبرة لغرض الخياطة.

٦- حيّز العنوان.



الشكل التوضيحي، ٢٠: التثبيت بالخياطة:

الصناديق، هي الشكل الجديد للكتب القديمة المغلفة بالقماش، ويُفترض سلفاً أن يكون اختراع هذا الشكل من الكتب قد سبق اختراع الطباعة بالقالب.

ولم يقدم اختراع الطباعة بالنمط المتحرك أي تغيير على الإطلاق في شكل الكتاب وطريقة الربط، فقد بقيت على حالها

كما هو الحال مع الكتب المطبوعة بالقالب.

وبظهور الكتاب المجلد بدأت محتويات الكتاب تأخذ ترتيباً محدداً، وهو الجانب الذي تطور بشكل واسع من الكتب القديمة. وهذا الترتيب - في الحقيقة - تلته التطورات الكبيرة التي نجدها في الكتب في وقتنا الراهن؛ على الرغم من اختلاف المصطلحات المستخدمة بين الماضي والحاضر. ويتضح في الكتب الحديثة وجود ورقة في الغلاف الخارجي أكثر سماكة من الورق المستخدم داخل الكتاب، وهي ما يُسمى «الغلاف»، وكان نظيرها في الكتب القديمة يسمى «لباس الكتاب». ويأتي بعد الغلاف الأمامي ورقة فارغة، هي «الورقة المرفرفة» في الكتاب الحديث، وقد تطوّرت من الشريحتين «الإضافيتين» في كتب الخيزران. وكانت «صفحة العنوان» الحديثة تسمى - فيما مضى - «الغطاء الداخلي»، وبعد ذلك يأتي الفهرس والمحتويات والنص الأساس، إنتهاءً بالملحق والغلاف الخلفي، وهو الترتيب نفسه في الكتاب الحديث كما هو الحال في الكتاب القديم.

٢- الكتب بعد اختراع الطباعة:

شجع نمو الإنتاج في عالم الكتب، بعد اختراع الطباعة، العلماءَ لتأليف المزيد من الكتب واقتنائها، ومنذ عصر مملكة تانغ، وما تلاها، أصبح اقتناء الكتب بصورة خاصة صيحة جديدة، وعلى أي حال، وبما أن الحصول على الكتب المكتوبة بخط اليد كان غير متيسر، فإن نخبة قليلة من الناس هم من كان في

مقدورهم اقتناء أكثر من عشرة آلاف كتاب. وبحلول عصر مملكة سونغ بدأ انتشار الكتب المطبوعة يتوسع وتزداد أعداده، وقد موّل محبو الكتاب الطباعة لأجل ترويجه، وافتُتح الكثير من محلات بيع الكتب، وكان أشهرها تشينغ شاي يو ***Chin Chi Pu*** (مكتبة سوترا ***Sutra***)، التي كانت تديرها عائلة تشين ***Chen*** في ليـنان ***Li-nan*** (شيكيانغ ***Chekiang***)، وكذلك شين يو تانغ ***Chin Yu Tang*** التي كانت تديرها عائلة يو ***Yu*** في شين يانغ ***Chien Yang*** (فوكين ***Fukien***)، وقد ازدهرت الأخيرة في بدايات عصر مملكة مينغ (أوائل القرن الخامس عشر الميلادي)، وقد طَبَعَتْ أنواعاً مختلفة من الكتب، خصوصاً الأعمال الأدبية، وكذلك القصص الشعبيّة التي يرويها العامّة، وكتب المعلومات؛ مما جعل الكتب ميسورة ومتوافرة لدى مختلف الطبقات القارئة.

وفي أوائل عصر مملكة سونغ ازداد اقتناء الكتب حتى أصبح امتلاك ما يزيد على ثلاثين ألف كتاب ليس بدعاً من القول وغير مستغرب، وقد وصلت إلينا بعض الفهارس (الكاتالوجات) لترشدنا في الأبحاث الأدبية عن ذلك العصر، وقد زخرت المكتبة الإمبراطورية - أيضاً - بأعداد من الكتب بلغت أربعة وسبعين ألف كتاب، وكان التعامل مع الكتب في ذلك الزمن يجري بمنتهى العناية.

وقد قال رئيس الوزراء شزيما كونغ ***Szema Kuang*** لابنه يعظه:

«قبل قراءة الكتاب، أقوم أولاً بمسح الطاولة، وأضع غطاءً نظيفاً عليها، ثم أجلس للقراءة، وإذا أردت أن أقرأ في أثناء المشي أضع الكتاب على لوحٍ مربّع كي لا تصل رطوبة يدي إليه فتلوثه. وعندما أقلب الصفحة أرفعها بهدوء بإبهامي وأقلبها ببطء باستخدام السبابة، ولكن أنت لديك تلك العادة السيئة وهي الخربشة على الصفحة بأظفارك، فكيف تسلم من تلويثك».

واستمر ازدهار طباعة الكتب واقتناؤها، فقد كان الكثير من المكتبات الخاصة في عصر شينغ يعجّ بمئات الآلاف من الكتب؛ من بينها الكتب المطبوعة بالقالب الموروثة عن مملكتي سونغ ويان، ويمكن – في الغالب – تقصّي تاريخ تلك الكتب، وكيف انتقلت من عائلة إلى أخرى؟ واليوم أسهم عدد ضخم من الكتب المملوكة، بصفة خاصة، أو المشتراة في إنشاء المكتبات التابعة للدولة، ولاسيما مكتبة بكين ومكتبة نانكنغ، وأصبحت ملكاً للشعب الصيني.

وقد شجع انتشار الكتب بصورة أوسع بعد اختراع الطباعة المزيد من الكُتَّاب على التأليف، وتُظهر كتب الفهارس من مختلف الممالك أن أعداد الكُتَّاب قد تنامت، واضطردت أعمالهم في كل جيل، وطُبع المزيد والمزيد من تلك الأعمال وتم نشرها، ولم تكن الكتب مطبوعة بلغة «هان» فحسب، بل أيضاً باللغة المنغولية وبلغة التبت.

وقد تُذكر بعض الأعمال الشهيرة بحضرة الإمبراطورات الذين كانوا يعدّون تلك الأعمال كالفاكهة التي يقوم بجنيها العلماء، ويمكن الاستشهاد بأمثلةٍ على ذلك الاهتمام من مملكة سونغ الشمالية في أعمالٍ مثل: تاي بينغ يو لان **Tai Ping Yu lan**، وتسي فو يوان كوي **Tse Fu Yuan Kuei**، ووين يوان ينغ هوا **Wen Yuan Ying Hua**، وكل عمل من تلك الأعمال يتضمن ألف مجلد (شوان). وتلك الأعمال كانت تحتوي على سجلات نادرة مأخوذة من لفافات قديمة غير مطبوعة؛ لكنها مفقودة الآن، وهي تقدم مادة قَيِّمَةً لدراسة الثقافة القديمة، وتضمّ موسوعة يونغ لو ٢١٦٩ محرراً، واستُكمل العمل بها خلال عهد إمبراطور مملكة مينغ يونغ لو **Yung Lo** أوائل القرن الخامس عشر الميلادي، وتتألف من ١١,٩١٥ مجلداً، وكانت هي الموسوعة الأكبر منذ العصور القديمة، كما كانت ذات قيمة عالية لأقصى الحدود؛ إذ احتوت على مواد غنية عوّضت فقدان نصوصها الأصلية، كما اشتملت كذلك على كتب مختصة بالأدب الشعبي.

وهناك مجموعتان فقط من النصوص المكتوبة بخط اليد، تُعدَّان من النصوص المطبوعة بالقالب بشكل أكيد. إحداهما تلفت من جراء الحريق، والأخرى - وهي غير كاملة - احتفظت بها أكاديمية هانلين إبّان عصر مملكة تشينغ.

وفي عام ١٩٠٠م عندما احتلت القوات المشتركة من القوى

الإمبراطورية الثماني بكين، قام المخرّبون بإحراق وسلب الأعمال التي لا تُقَدَّر بثمن، وقد سلمت ثمانية مجلدات فقط من تلك الهجمات، وهي الآن موجودة بمكتبة بكين.

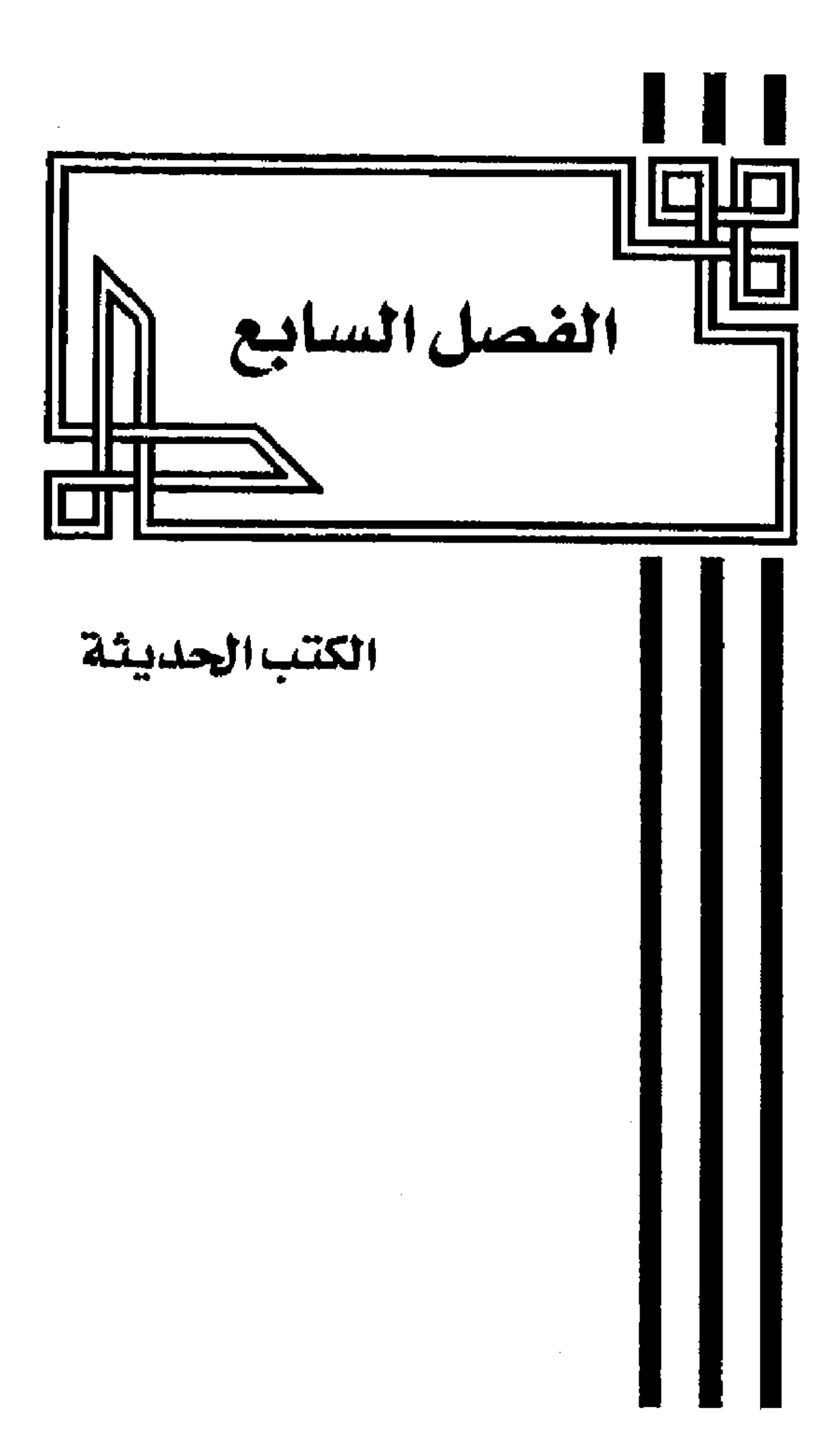
أمَّا الأحد عشر مجلداً التي استولت عليها القوات القيصرية الروسية فقد أُخذت إلى لننغراد، ثم أعادتها الحكومة السوفيتية إلى الصين عام ١٩٥١م، كما أعادت حكومة جمهورية ألمانيا الديمقراطية ثلاثة المجلدات التي سلبتها القوات الألمانية إلى الصين عام ١٩٥٥م، وتلك النسخ المستعادة موجودة الآن بمكتبة بكين.

وبعد تحريات مكتبية أخذت المكتبة على عاتقها تقصّي وشراء عدد من المجلدات، وحتى الوقت الحاضر (١٩٥٨م) يوجد على أرفف المكتبة مائتا مجلد من تلك الموسوعة، أمَّا المجلدات التي استولى عليها البريطانيون والأمريكيون واليابانيون فلا تزال في لندن وواشنطن وطوكيو.

وقد أُلِّفَت الكتب وجُمِعَتْ بأعداد ضخمة خلال عصر إمبراطور مانشو ***Manchu*** كانغ هساي ***Kang Hsi*** (١٦٦٢-١٧٢٢م)، وعصر الإمبراطور شين لونغ ***Chien Lung*** (١٧٣٦-١٧٩٥م). ومعظم تلك الكتب مثل: قاموس كانغ هساي ***Kang Hsi***: بي وين يون فو ***Pei Wen Yun Fu***، ويوان شين لي هان ***Yuan Chien Lei Han***، وشوان تانغ شيه ***Chuan Tang Shih***، تُعدّ مراجع مهمة في دراسة الأدب القديم. كما تُعدُّ موسوعة كو شين تو شو شاي شينغ ***Ku Chin Tu***

Shu Chi Cheng التي تحتوي على مائة مليون رمز تعجُّ بها عشرة آلاف لفافة (شوان)، واحدة من أضخم الموسوعات في العالم، وهي توضّح بجلاء الفروع المختلفة للمعرفة وتصنفها وتقسّمها إلى أقسام، وتقدم أمثلة غزيرة وتعليقات وملاحظات. وتعدّ طباعة تلك الموسوعة بنمط النحاس المتحرك حدثاً فريداً ولافتاً في تاريخ الطباعة الصينية.

وقد أُلِّف كتاب زي كو شوان شو ***Sze Ku Chuan Shu*** (مكتبة شين لونغ الإمبراطورية) خلال عصر إمبراطور مانشو شين لونغ، وكان عملاً عملاقاً احتوى على ٣٦,٠٠٠ مجلد، تحتوي على ٣,٤٥٧ نوعاً من الكتب مقسّمة إلى أربعة مصنّفات، هي: الأعمال الكلاسيكية، والتاريخية، والفلسفية، والأعمال المكتبية. ولم يكن هذا الكتاب - على ضخامته - مطبوعاً، وتم نسخ سبع مجموعات باليد بقيت منها أربعٌ.



الفصل السابع

الكتب الحديثة

١- النشر الحديث:

انتشر الورق والطباعة - وهما اختراعان حضاريان يعودان إلى الشعب الصيني - بشكل سريع شرقاً عبر كوريا إلى اليابان، وغرباً عبر الشرقين الأوسط والأدنى إلى أوروبا. وقد تطوّر هذان الاختراعان، ومضيا قدماً بدعمٍ من العلوم والتقنية الغربية.

وخلال تلك المدة الزمنية الطويلة الفاصلة، لم تتوقف صناعة الورق والطباعة في الصين تماماً؛ بل حدث لها تباطؤ في مراحل معيّنة بسبب الإقطاع وبقاء الأنظمة الحاكمة مُدداً طويلة نتجت منها عوائق في القوى الإنتاجية والعلوم. وظل هذان الفرعان المهمان من أفرع الصناعة رهينين بمرحلة الحرفيّة اليدوية. وعلى الرغم من المزايا الفريدة لتلك الحرفة اليدوية ونتاجها، إلا أنها لم تقدّم نتاجاً غزيراً، ولم تحفل بتقدم مضطرد.

وقد أدّت التغييرات الجذرية في الصين مع نهاية القرن التاسع عشر الميلادي، إلى تنامي الحاجة الملحة إلى المواد المطبوعة. وقد شرعت الصين في تطبيق الخبرة الغربية في صناعة الورق والطباعة والقيام بالتعديلات الضرورية كي تناسب خصائص الكتب الصينية، وقد دخلت الميكنة والكهرباء تدريجياً، وخرجت تلك الصناعتان المهمتان إلى النور، وعُملت طباعة الصور لأول مرة بطريقة نحت القوالب ذات الصناديق الخشبية واللوحات النحاسية واللوحات الزنكية، ثم بطريقة الأوفست

والتصوير الفوتوغرافي لاحقاً، مما جعل القوالب الخشبية تتلاشى تدريجياً.

بدأ استخدام نمط الرصاص المتحرك في الصين قبل زهاء مائة وثلاثين عاماً، وفي أوائل القرن التاسع عشر الميلادي حاول المبشّرون الأوروبيون الذين أتوا إلى الصين طباعة الكتب الصينية بالطريقة الغربية ذات النمط المتحرك، وفي عام ١٨١٩م طُبع الكتاب الصيني الأول بطريقة ضغط الحروف في ملقا. وبعد عام ١٨٤٤م تم إعداد المحلات المختصة بالطباعة التي كانت تستخدم نمط الرصاص المتحرك في الصين وفي مكّاو وهونغ كونغ ونينغبو وأماكن أخرى، وكانت تُشَغِّلُها بعثات التنصير التي نشرت كتيبات دينية، وكانت تلك الحقبة هي حقبة الاختراق الاستعماري للصين؛ حيث بدأ الشعب الصيني في مقاومة العدوان الغربي، ولأجل تعميم فكرة الاستقلال الوطني، أصبحت الطباعة الحديثة ضرورة ملحّةً أكثر فأكثر.

ومنذ عام ١٨٦٠م وما بعده تضاعفت أعداد محلات الطباعة الحديثة التي تستخدم طرقاً جديدة، وازداد عدد الصحف الإخبارية والمجلات ودور النشر. وبعد ذلك بمدة وجيزة أصبحت الكتب المطبوعة محصورة في نطاق الكتب المستخدمة والمترجمة والمؤلفة من قِبَلِ البعثات، كما ظهرت الكتب المختصة بالعلوم الطبيعية والصناعة والزراعة والطب والأدب وما إلى ذلك، وكذلك الكتب السياسية، والكتب الخاصة بالعلوم الاجتماعية التي تقدم

معلومات حول الأوضاع الدولية، أو التي تروّج للإصلاحات السياسية والثورة الداخلية.

وقد أعطت تلك الكتب دفعة قوية في سبيل نشر روح الوطنية؛ فبعد عام ١٨٩٠م نُشرت المجلات والصحف اليومية بأعداد ضخمة، كما تمّ طباعة الكتب القديمة أيضاً بالطرق الحديثة، وقد تزامن ذلك مع ظهور الطباعة الحجرية لأول مرة، واستُخدمت مع الطباعة بطريقة ضغط الحرف، وقد افتُتحت أول مطبعة حجرية، وهي مطبعة **تين شيه شاي *Tien Shih Chai*** في شنغهاي، من قبل رجال أعمال بريطانيين عام ١٨٧٦م، وتمّ طباعة الكتب القديمة أولاً، ثم طُبعت المجلات المصوّرة لاحقاً بطريقة الطباعة الحجرية. ونتيجة لذلك قام الرأسماليون الصينيون بإنشاء مطابع، مثل: **تونغ وين شو تشو *Tung Wen Shu Chu***، **وپاي شيه شان فانغ *Pai Shih Shan Fang***، **وهونغ وين شو تشو *Hung Wen Shu Chu***... إلخ، والتي أعادت طباعة الكثير من الكتب القديمة النادرة. كما أصبحت تقنية الطباعة الفوتوغرافية التي تقوم بإعادة إنتاج النسخ الأصلية بأحجام مختلفة مشهورة بين القراء ومحبي الكتب.

ودخلت طريقة الحفر باستخدام الصفائح النحاسية والطباعة إلى شنغهاي في منتصف القرن التاسع عشر الميلادي. وقد طُبِعَ عدد محدود من الكتب بتلك الطريقة التي أثبتت - على أي حال - أنها طريقة شاقة للغاية، لكنها الأنسب فيما يتعلق بطباعة الصور

الفنية أو الوثائق. وبعد اختراع الطباعة بطريقة الحفر الضوئي في أوائل القرن العشرين الميلادي كانت الطباعة باستخدام الصفائح النحاسية هي المستخدمة فقط في طباعة الكتب.

وفي بدايات القرن الحالي(*) أصبحت بعض دور الطباعة الضخمة مثل المطبعة التجارية وين مينغ شو تشو ***Wen Ming Shu Chu*** ومكتبة تشونغ هوا ***Chung Hua***، تدير مطابعها بنفسها، كما انضمت أيضاً بعض الصحف، مثل: صحيفة شون پاو ***Shun Pao***، وسين وين پاو ***Sin Wen Pao***، وشيه پاو ***Shih Pao*** إلى عالم أعمال الطباعة، وطبعت تلك المؤسسات عدداً كبيراً من الكتب.

وقد تطورت تقنية الطباعة بخطى حثيثة وثابتة، فبالإضافة إلى الطباعة بطريقة ضغط الحروف، هناك أيضاً الطباعة بالأوفست والصفائح النحاسية، والطباعة الضوئية الجيلاتينية، والطباعة بطريقة الحفر الضوئي. وقد برز عدد من المهرة في تلك الصناعة؛ سواء في مجال الصور ذات اللون الواحد، أو الأعمال الفنية متعددة الألوان. وقامت المطبعة التجارية بطباعة الأعمال الضخمة بما في ذلك زي پو تسونغ كان ***Sze Pu Tsung Kan***، ومجموعة تاريخ السلالات الحاكمة، وعددها أربعة وعشرون عملاً.

(*) نرجو أن يلاحظ القارئ الكريم أن الكتاب الذي بين أيدينا يتحدث عن الطباعة حتى العام ١٩٥٨م، تاريخ نشر الكتاب (المترجم).

كما قامت مكتبة تشونغ هوا بطباعة كو تشين تو شو تشاي تشينغ *Ku Chin Tu Shu Chi Cheng* وزي پو پي ياو *Sze Pu Pei Yao*، كما عُدَّ استنساخ الخطوط والرسومات التي أنجزها فنانون قدماء ومعاصرون عملاً فنياً بحدِّ ذاته، وقد شاركت دور النشر تلك، وكذلك الصحف، كثيراً في تقدم الثقافة ونشرها.

وشهدت حركة الرابع من مايو ١٩١٩م انتشار الماركسية والشيوعية في الصين، وأصبح نشر الأدبيات الجديدة والفنون سمةً في شنغهاي ومراكز أخرى، وقادت الدوريات الفصلية الثورية، مثل: الدوريات الشيوعية هسيانغ تاو *Hsiang Tao*، وهسيانغ شيانغ پينغ لون *Hsiang Chiang Ping Lun*، وتشونغ كو تشينغ نين *Chung Kuo Ching Nien*، والشبيبة الصينيين، الفكرَ والعملَ لدى الجماهير الثورية، وظهرت تلك الكتب التي تُعَرِّفُ بالأعمال الماركسية - اللّينينية، وتناقش قضية الثورة الصينية في شنغهاي وغيرها، وأعطت بدورها نبضاً جديداً لتسارع الثورة وتناميها.

بعدما عانت الثورة من نكسة مؤقتة، أصبح تداول أدبياتها التقدمية محصوراً على قواعد الجيش الأحمر، وتحت ظروف صعبة أو سِرِّيَّة في المناطق التي يتحكم فيها الكومينتانج (القوات الرجعية) وهي مهمة محفوفة بمخاطر جمّة. وعلى الرغم من ذلك الوضع المعاكس؛ فقد تم نشر عدد من الكتب التي ناصرت قضية

الثورة وتقدّمها المضطرد، حيث نجحت لاحقاً في الوصول بأعداد أكبر سواء من الكتب أو الدوريات إلى الصحافة.

في الوقت نفسه، وخلال المرحلة التي كان الوكيل الوطني البيروقراطي البورجوازي - في المناطق التي تقع تحت سيطرة الكومينتانج - مسيطراً على الإصدارات والأفكار الفاشيّة والأخلاقيات الإقطاعية، كانت السوقية والقذارة منتشرتين في تلك المناطق.

٢- إصدار الكتب في الصين منذ التحرير:

انتشرت إصدارات الكتب بشكل كبير منذ تأسيس جمهورية الصين الشعبية عام ١٩٤٩م، وأصبحت الكتب، بعد فترة وجيزة، تحت احتكار المتنفّذين والمترفين، لكنها كانت أيضاً الغذاء الروحي للجماهير العريضة من الطبقات العاملة.

وكانت سنة ١٩٣٦م هي الذروة التي سبقت التحرير، حيث طُبع في تلك السنة (١٧٨,٠٠٠,٠٠٠) نسخة من الكتب، إضافة إلى مجموعات ضخمة من الصور، فضلاً عن الدوريات.

وفي عام ١٩٥٦م وصل الرقم إلى (١,٧٨٦,٤٦٠,٠٠٠)، وكان إصدار ألفي نسخة يُعَدُّ رقماً ضخماً قبل التحرير، أمَّا اليوم فالكتاب الواحد يباع منه في الغالب مئات الآلاف من النسخ، أمَّا تلك الكتب التي تحوز شهرة شعبية فيباع منها ملايين النسخ، وعلى سبيل المثال، فقد بيع - بحلول شهر نوفمبر ١٩٥٧م - من كتاب «ابن الطبقة

العاملة»، وهو سيرة ذاتية لـ وو يون - تو **Wu Yun-to**، وهو من العمال الأبطال، أكثر من (٤,١٩٠,٠٠٠) نسخة، كما بيع (١,٩٩٠,٠٠٠) نسخة مترجمة من كتاب أوستروفيسكي: «كيف عولج الحديد».

واحتلت الأعمال الماركسية - اللينينية مكانة بارزة في نشاطات النشر بالصين. وبحلول شهر يونيو عام ١٩٥٧م، صدرت أعمال ماركس وإنغلز ولينين وستالين، وعددها (٢٥١) عملاً، وطُبع منها (٢٩,٠٧٥,٠٠٠) نسخة.

وتمّ توزيع أكثر من ١١ مليون نسخة من الطبعات الأولى والثانية والثالثة من الأعمال المختارة لـ ماو تسي - تونغ **Mao Tse-tung** بحلول شهر نوفمبر ١٩٥٧م.

وللوفاء بمتطلبات العمال والفلاحين والجنود، طُبعت نسخ بأعداد ضخمة من الكتب الخاصة بالقراءات العامة الشعبية؛ المتدرّجة من النظريات السياسية نزولاً إلى طرق الإنتاج، وقد وُضع عدد كبير من تلك الأعمال في شكل قصص مصوّرة، ومخطوطات، وقصائد شعبية، وأعمال أوبرالية، وصور خاصة باحتفالات السنة الجديدة.

وهناك طلب متنام على أعمال الكتّاب الأجانب، فعلى سبيل المثال، منذ أكتوبر ١٩٤٩م حتى نهاية عام ١٩٥٦م تمت ترجمة ١٦,٣٠٩ أعمال أجنبية، وطباعة ما مجموعه ٢٧٣,٧٠٠,٠٠٠ نسخة من تلك الأعمال، التي قَدَّمت إلى القراء الصينيين آخر ما

تم التوصُّل إليه وإنجازه في العالم من العلوم والتقنية والآداب والفنون... إلخ.

وقد تُرجمت روايات تولستوي وجوركي وديكينز وبلزاك وتوين ومسرحيات شكسبير وموليير وإبسن، وقصائد دانتي وبيروز وجويس وطاغور، وتمّت طباعتها بأعدادٍ ضخمة.

وقد أدّت أعمال القمع والاستغلال التي مورست ضد العديد من الأقليات الوطنية الصينية - التي تصل إلى ١٩٥٣ أقلية يمثلهم ما مجموعه ٣٥ مليون شخص - إلى وضعهم في ظروف تتسم بالتخلف الثقافي والاجتماعي، والكثير من تلك الأقليات ليس لديه لغة مكتوبة، وبعضها لديه لغات، ولكنها لا تتمتّع إلا بالنزر اليسير من الإصدارات.

فاللغة التبتية - على سبيل المثال - كانت موجودة في القرن السابع الميلادي، ولكنها ظلّت تراوح في مرحلة الطباعة بالقالب الخشبي حتى عام ١٩٥١م، عندما تم تحرير التبت بطريقة سلمية. وعلى أي حال فمنذ التحرير نشرت المطابع الوطنية في بكين كتباً باللغات المنغولية والتبتية واليوغوريّة والكورية والكازاخية.

وقامت دور النشر في مقاطعات شنغهاي وششوان ويونان، وكذلك في الإقليم المنغولي الداخلي المستقل، وإقليم سينكيانغ يوغور المستقل، وإقليم ين پين الكوري المستقل (تشو)، ومناطق أخرى؛ قامت كلها بإصدارات ضخمة بلغات الأقليات الوطنية في تلك

المناطق، وصدرت في المدة ما بين ١٩٥٢ و١٩٥٦م كتب بلغات الأقليات الوطنية تلك بعدد إجمالي بلغ ٤،٣٠٣ من العناوين الجديدة، وكذلك ٦٨٥ عنواناً آخر أُعيدت طباعتها بنسخ بلغت ٤٦،٦٠٠،٠٠٠ نسخة.

واحتلت الأعمال الأدبية المرتبة الأولى في عدد الإصدارات، وكانت أعمال لو هسون ***Lu Hsun***، وكو مو - جو ***Ku Mo-jo***، وماوتن ***Maotun*** وكتّاب حديثين آخرين هي الأكثر شيوعاً جنباً إلى جنب الأعمال الكلاسيكية، مثل: **قصائد تشو الشعبية، وجميع الرجال هم إخوة، وأحلام الغرف الحمراء** ... إلخ.

وقد زاد الطلب على الإصدارات تماشياً مع تنامي البناء الوطني المتسارع. وللوفاء بتلك الحاجة الملحّة تمّ إعادة هيكلة وتنظيم دور النشر وتوسيعها، وتم إدراج التخصصات وأقسام الأيدي العاملة، وكذلك الأعمال السياسية، والنظرية، والمالية، والاقتصادية، والأعمال الكلاسيكية القديمة، والفنون والآداب، والعلوم والتقنية، والكتب المدرسية والجامعية، وكتب القرّاء من العمال، والقرّاء من الشباب، والقرّاء من عامة الناس، والكتب المؤلفة بلغات أجنبية.

وكل صنف من تلك التخصصات له ناشروه المختصّون، وبنهاية عام ١٩٥٦م أصبح في البلاد (٨٢) دار نشر تابعة للدولة، و(١٩) داراً أخرى للنشر مشاركة بين القطاعين الخاص والعام للدولة.

وفي مجال التوزيع أسهمت مكتبة هسينهاو ***Hsinhuo*** وفروعها، ومكتبات أخرى، وأكشاك بيع الكتب الكبيرة منها والصغيرة؛ بل حتى أسواق مواد التموين، والجمعيات التعاونية في المناطق الريفية، أسهمت كلها في توزيع الكتب وبيعها، فبعد أن يغادر الكتاب المطبعة يذهب إلى كل جزء من البلاد.

٣- الكتاب الصيني الحديث:

عندما طُبعت الكتب أول مرة بالطرق الحديثة في الصين كان نمط الطباعة بالرصاص المتحرك، أو نمط الطباعة الحجرية مستخدمين كي يحلا محل الطباعة بالقالب الخشبي، لكن التصميم والتجليد بقيا دون تغيير؛ مما أعطي الكتاب شكلاً غير مختلف عن الكتاب المطبوع باستخدام نمط الخياطة. وقد فرض اختراع آلة الطباعة ومتعلقاتها تغييراً في مجال الطباعة والتغليف على ما نراه اليوم في شكل الكتاب الحديث.

إن طباعة الكتب الصينية الحديثة لا تختلف - فنيّاً - عن الطباعة في أي مكان آخر، والاختلاف الوحيد هو في تقديم النص، ويعود ذلك، فقط، إلى الكتابات الرمزية (إيدو جراف).

ونلاحظ أن الأعمدة مصفوفة بطريقة دقيقة على الرغم من عدم تحديدها بحواف، وعملياً نجد جميع الكتب حالياً مرتبة من اليسار إلى اليمين، كما في اللغات الغربية، وغالباً ما تتبع جميع المجلات والصحف تلك الطريقة.

أما طرق التغليف فهي متعددة ومستخدمة كلها في الوقت الراهن، مثل التغليف بالورق الذي يشمل استخدام الورق المقوى أو ورق الكرتون كغلاف، بطريقة تشبه - إلى حدٍّ ما - طريقة التغليف القديمة. وجميع طرق التغليف؛ سواء بالورق أو الورق المقوى أو التغليف بالقماش؛ تُعَدُّ فناً من الفنون. كما تُستخدم الأقمشة والجلود في بعض الأحيان لأغراض التغليف، ولأجل تدعيم الغلاف سواء من الوجه أو الخلف. ولزيادة متانة الغلاف مع الطبعات الفاخرة يكون الغلاف المستخدم مزدوجاً، وفي الطباعة الغربية نجد العنوان واسم الكاتب والناشر كلها موحدة ومطبوعة على الوجه أو في الكعب.

ولتغليف الكتاب بالورق أو القماش يُرفق - في بعض الأحيان - فوق الغلاف غلافٌ ورقي واق (**سترة - جاكيت**)، ويُطبع فوقه العنوان واسم المؤلف... إلخ، وأحياناً يحوي وصفاً للتصميم والناشر، وبذلك تكون وظيفة السترة للحماية، والدعاية للكتاب.

لقد ظهر الكتاب في شكله الحالي مستفيداً من تراكم الخبرات على مدار ثلاثة آلاف سنة من التجارب، ومن المنجزات العلمية والتقنية للغرب. إنه هدية الشعوب العاملة التي استطاع عمالها، عبر القرون، أن يجعلوا المحافظة على إبداع الكتّاب القدماء ومواهبهم، ورعاية جهودهم الشاقة أمراً

ممكناً؛ مما يمكننا نحن من الاستمتاع بالموروث الثقافي الغني والمتعدد لأسلافنا.

إن مشروع صناعة الكتاب، وما يتعلق به من أعمال أخرى، سيجعل من شعب الصين شعباً متقدّماً مع تقدّم المعرفة والعلوم وتطوّر المجتمع.

جدول يوضح مراحل تطوّر الكتاب الصيني

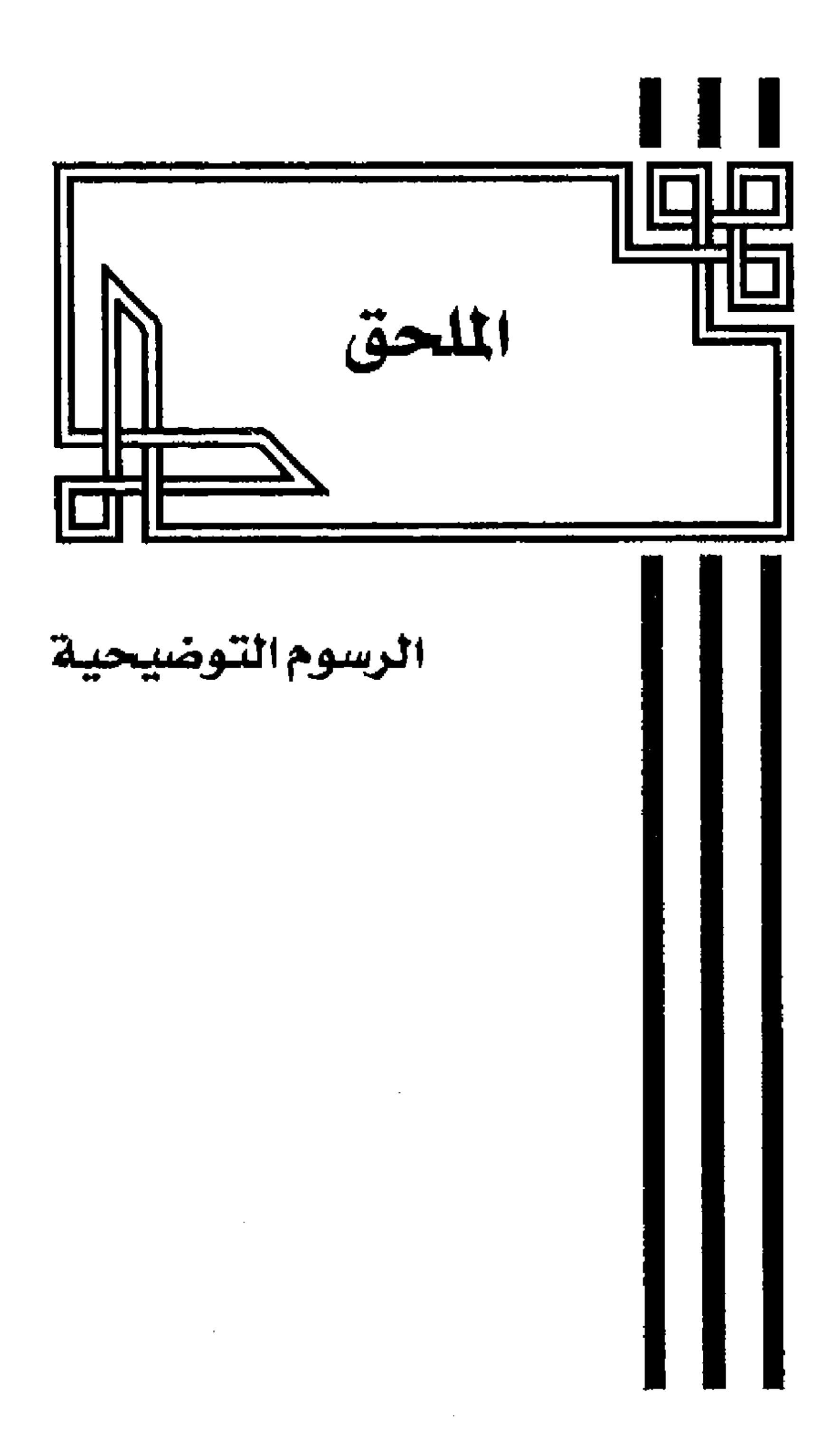
النظام	شرائح الخيزران وألواح الخشب	اللف والقضيب		الانتقال من اللف والقضيب إلى التغليف بالورق	كتاب مجلد (ورق مزدوج والطباعة على جانب واحد)			كتاب مجلد (ورقة مفردة والطباعة على الجانبين)
المواد	الخيزران والخشب	الحرير	الورق	الورق	الورق			الورق
التغليف	خيوط حريرية وسيور جلدّية	اللف والقضيب	اللف والقضيب والستاد الوتري (الخيط)	تغليف السوترا والتغليف بطريقة الزوبعة	التغليف بطريقة الفراشة (الثني للخارج)	التغليف بطريقة الدعم (الثني للداخل)	التغليف المخيط (الثني للداخل)	التغليف بالورق والتغليف بالقماش
طريقة النسخ	النسخ باليد	النسخ باليد	النسخ باليد	النسخ باليد، الطباعة القديمة بالقالب	الطباعة بالقالب	الطباعة بالقالب	الطباعة بالقالب، النمط الخشبي المتحرك	النمط الرصاصي المتحرك، ضغط الحرف، الطباعة الحجرية، التصوير
الفترة التي وجدت بها	من القرن الرابع عشر قبل الميلاد حتى القرن الرابع بعد الميلاد	من القرن الرابع قبل الميلاد حتى القرن الخامس بعد الميلاد	من القرن الثاني حتى القرن العاشر الميلادي	القرنان التاسع والعاشر الميلاديان	القرون من العاشر حتى الثالث عشر الميلادي	القرون من الثاني عشر حتى الخامس عشر الميلادي	من القرن الرابع عشر الميلادي حتى اليوم	من القرن العاشر الميلادي حتى يومنا الحاضر

السلالات الصينية الحاكمة

هسيا	من القرن الحادي والعشرين إلى القرن السادس عشر قبل الميلاد
شانغ	من القرن السادس عشر إلى القرن الحادي عشر قبل الميلاد
تشو الغربية	من القرن الحادي عشر - ٧٧١ قبل الميلاد
تشو الشرقية	من ٧٧٠ - ٢٢١ قبل الميلاد
الربيع والخريف	من ٧٧٠ - ٤٧٥ قبل الميلاد
الدول المحاربة	من ٤٧٥ - ٢٠٦ قبل الميلاد
تشين	من ٢٢١-٢٠٦ قبل الميلاد
هان الغربية	٢٠٦ قبل الميلاد - ٢٤ بعد الميلاد
هان الشرقية	٢٥ - ٢٢٠م
الممالك الثلاث:	٢٢٠ - ٢٨٠م
وي	٢٢٠ - ٢٦٥م
شو	٢٢١ - ٢٦٣م
وو	٢٢٢ - ٢٨٠م
تسين الغربية	٢٦٥ - ٣١٦م
تسين الشرقية	٣١٧ - ٤٢٠م
السلالات الجنوبية والشمالية الحاكمة	٤٢٠ - ٥٨٩م

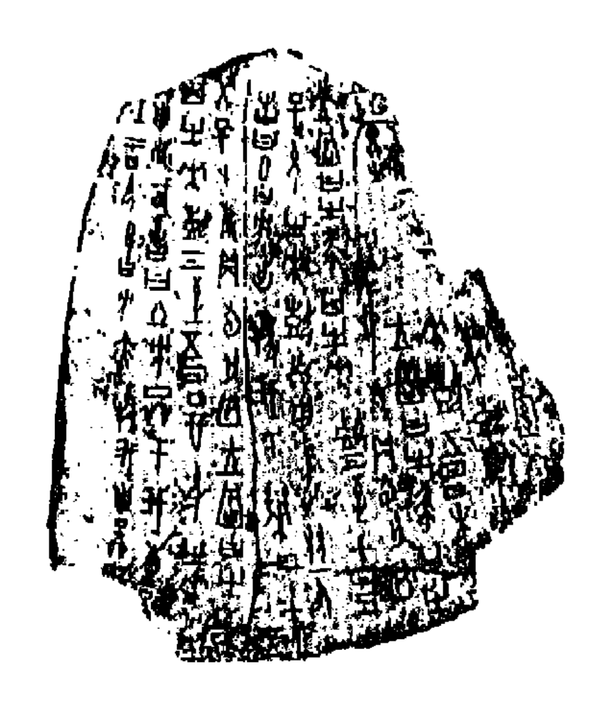
السلالات الجنوبية الحاكمة:	
سونغ	٤٢٠ - ٤٧٩م
تشاي	٤٧٩ - ٥٠٢م
ليانغ	٥٠٢-٥٥٧م
تشين	٥٥٧-٥٨٩م
السلالات الشمالية الحاكمة:	
وي الشمالية	٣٨٦-٥٣٤م
وي الشرقية	٥٣٤-٥٥٠م
وي الغربية	٥٣٥-٥٥٧م
تشاي الشمالية	٥٥٠-٥٧٧م
تشو الشمالية	٥٥٧-٥٨١م
سوي	٥٨١-٦١٨م
تانغ	٦١٨-٩٠٧م
حقبة السلالات الخمس:	٩٠٧-٩٦٠م
ليانغ اللاحقة	٩٠٧-٩٢٣م
تانغ اللاحقة	٩٢٣-٩٣٦م
تسين اللاحقة	٩٣٦-٩٤٧م
هان اللاحقة	٩٤٧-٩٥٠م
تشو اللاحقة	٩٥١-٩٦٠م
سونغ الشمالية	٩٦٠-١١٢٧م

سونغ الجنوبية	١١٢٧-١٢٧٩م
يوان (مونغول)	١٢٧٩-١٣٦٨م
مينغ	١٣٦٨-١٦٤٤م
شينغ (مانشو)	١٦٤٤-١٩١١م



الملحق

الرسوم التوضيحية



الرسم التوضيحي ١:
الكتابة على عظام السلاحف من حقبة سلالة شانغ

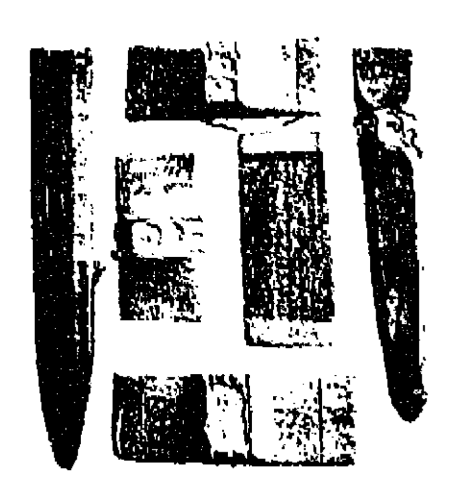


الرسم التوضيحي ٢:
مينغ وين (كتابة محفورة) من حقبة سلالة تشو

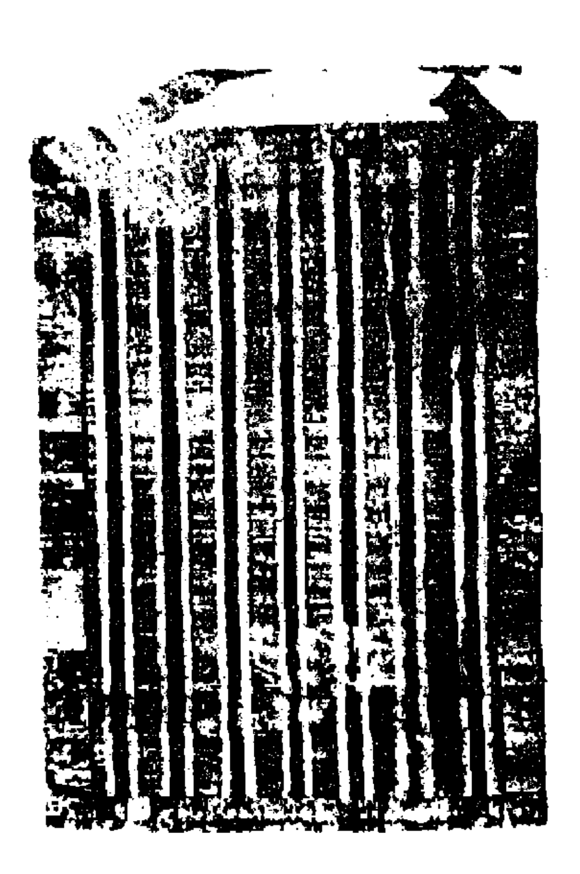


الرسم التوضيحي ٣:

شريحة خيزران من حقبة الدول المحاربة



الرسم التوضيحي ٤:
پان تو (كتابة على قطع خشبية)
في القرن الثالث الميلادي، اكتُشفت في سينكيانغ



الرسم التوضيحي ٥:
شو شيه (غلاف من الخيزران)،
محوكٌ بالخيزران الفاخر والحرير لحماية اللفائف

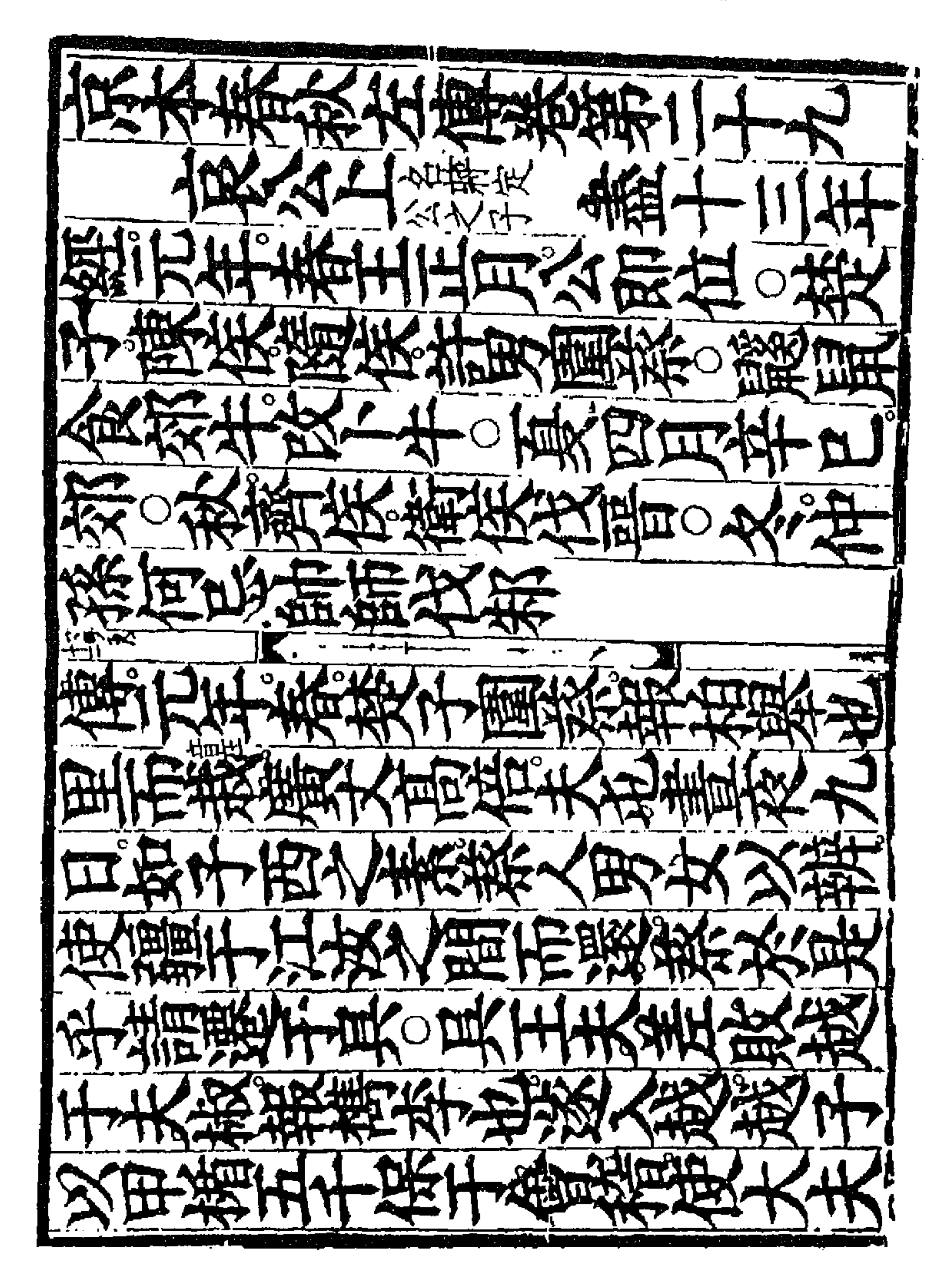
الرسم التوضيحي ٦:

سوترا منسوخة بخط اليد

يعود تاريخها إلى العام ٤٥٨ بعد الميلاد



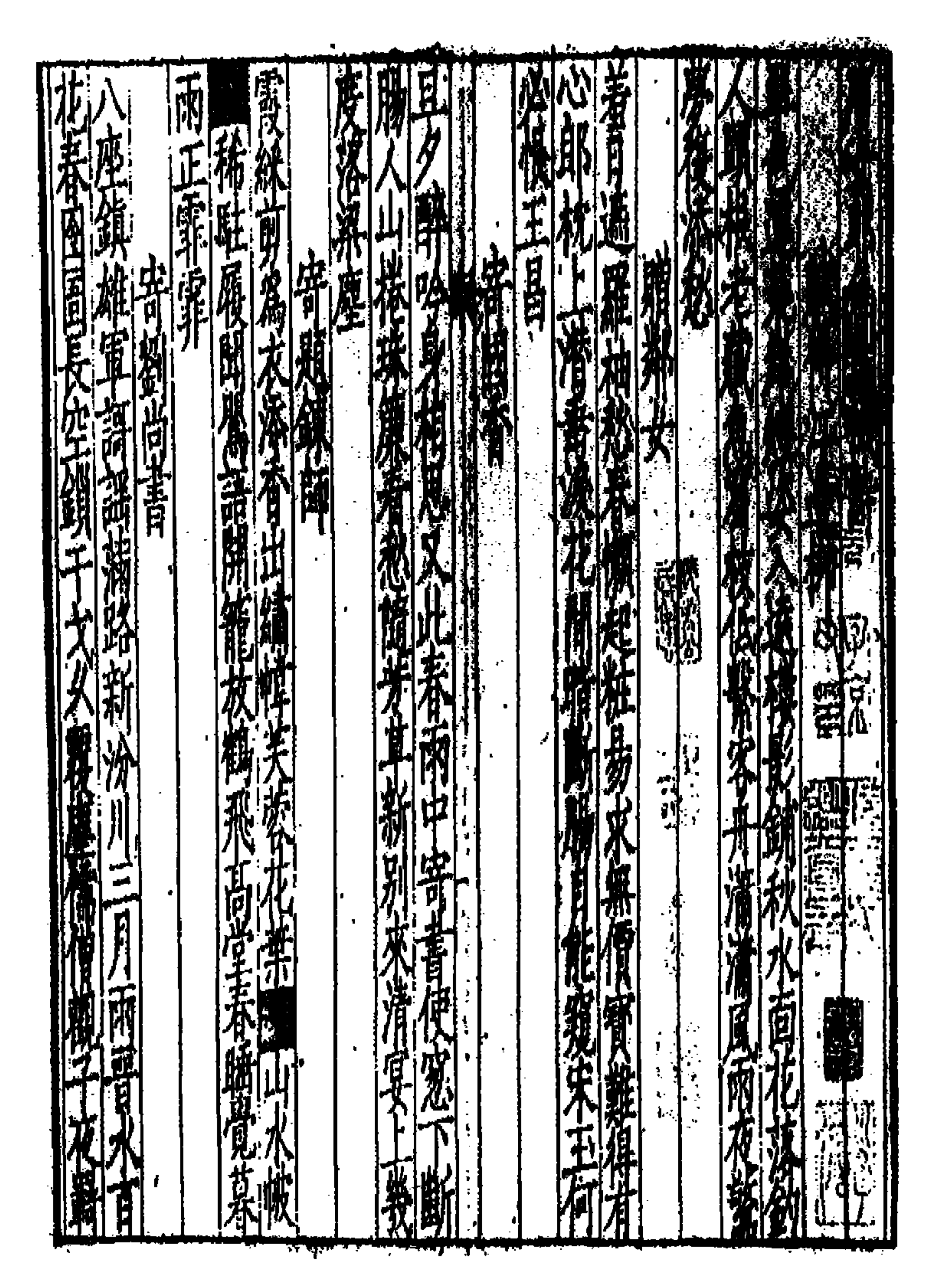
الرسم التوضيحي ٧:
أقدم كتاب مطبوع في العالم: السوترا الماسية
يعود إلى العام ٨٦٨ بعد الميلاد، سلالة تانغ،
وهي الآن في المتحف البريطاني


京本春秋左傳卷第二十九
哀公上 名蔣 定公之子 盡十三年
經元年春王正月公即位○楚
子陳侯隨侯許男圍蔡○鼷鼠
食郊牛改卜牛○夏四月辛巳
郊○秋齊侯衛侯伐晉○冬仲
孫何忌帥師伐邾
傳元年春楚子圍蔡報柏舉也
里而栽廣丈高倍夫屯晝夜九
日如子西之素蔡人男女以辨
使疆于江汝之閒而還蔡於是
乎請遷于吳○吳王夫差敗越
于夫椒報檇李也遂入越越子
以甲楯五千保于會稽使大夫

الرسم التوضيحي ٨:

طباعة مملكة سونغ والتغليف بطريقة الفراشة

لدى مملكة تساو شوان (سجلات حقبة الربيع والخريف)



الرسم التوضيحي ٩:

بعض قصائد تانغ مطبوعة

بطريقة القالب لدى سلالة سونغ الجنوبية

白氏文集卷之七

題潯陽樓

常愛陶彭澤文思何高玄又恠韋江州詩
情亦清閑今朝登此樓有以知其然大江
寒見底匡山青倚天深夜湓浦月平旦鑪
峯烟清輝與靈氣日夕供文篇我無二人
才孰爲來其間因高偶成句俯仰愧江山

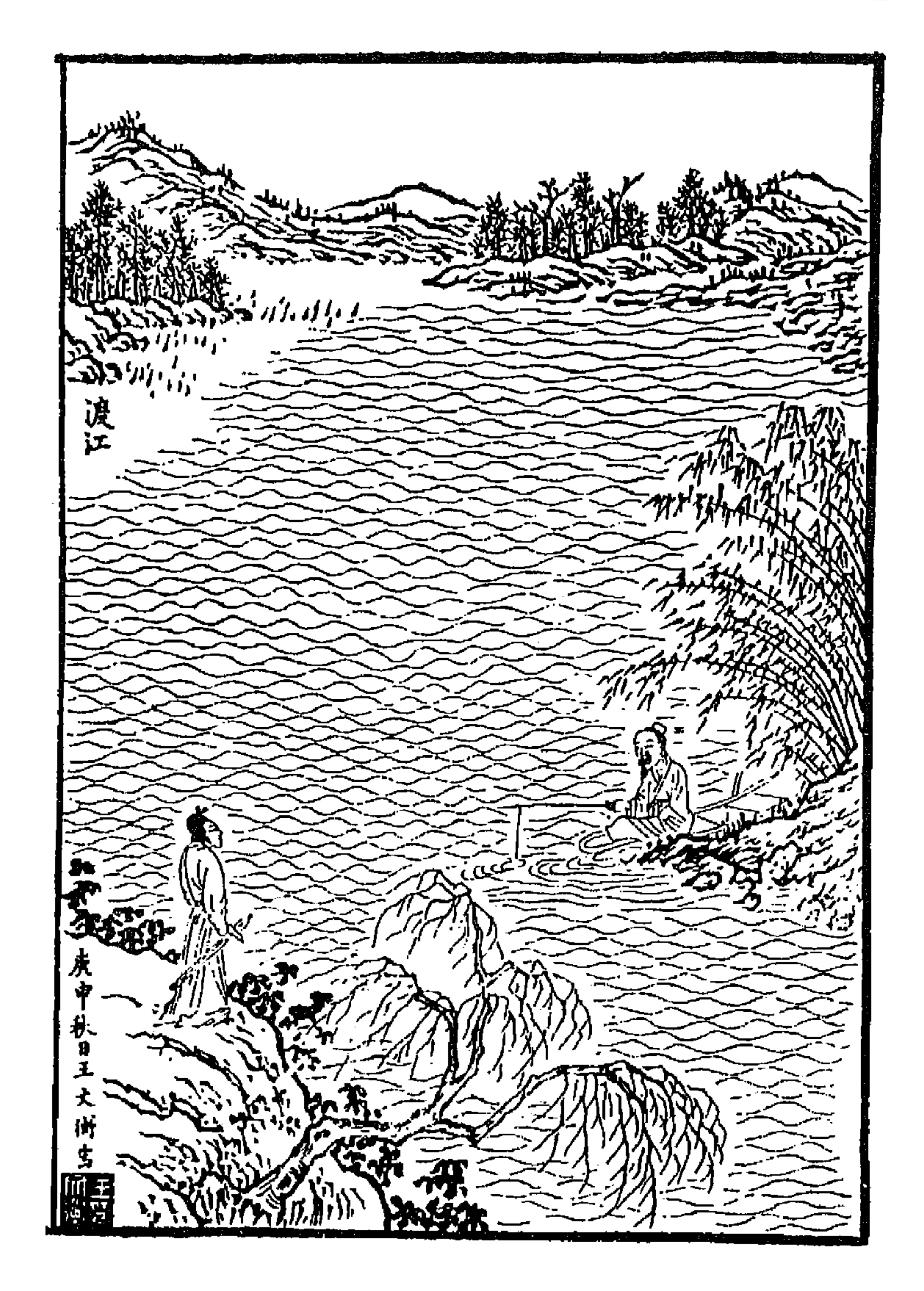
、訪陶公舊宅并序

予夙慕陶淵明爲人往歲渭川閑居嘗有
效陶體詩十六首今遊廬山經柴桑過栗
里思其人訪其宅不能默々又題此詩
垢塵不沾玉靈鳳不啄羶嗚呼陶靖節生
彼晉宋間心實有所守口終不能言永惟
孤竹子拂衣首陽山夷齊各一身窮餓未
爲難先生有五男與之同飢寒腸中食不
充身上衣不完連徵竟不起斯可謂貞賢

الرسم التوضيحي ١٠

عيّنة من الأعمال المختارة لـ(پاي شو)

مطبوعة بالنمط النحاسي المتحرك تعود إلى حقبة سلالة مينغ



الرسم التوضيحي ١١:

طبعة لكليشيه خشبي يعود إلى سلالة مينغ



مطبعة
مركز الملك فيصل
للبحوث والدراسات الإسلامية

قصة الكتاب الصيني

قصة الكتاب الصيني هي قصة بالغة الطرافة والجدة في آن معاً، وهي تحكي المراحل التي مرت بها الهدية التي قدمها شعب الصين للبشرية، والمتمثلة في: الكتاب. سعى المؤلف ليو كيو - تشن الأستاذ في جامعة بكين عبر كتابه الصغير الحجم، لكنه عظيم الأهمية، لإثبات أن الكتاب الذي تنعم البشرية - بمختلف ثقافاتها - بمطالعته اليوم، هو اختراع صيني، وهو يقدم عدداً من الدلائل والبراهين على ما يقول. وقد عاش المؤلف مع الكتاب رحلة ممتعة منذ بدأ التدوين على عظام دروع السلاحف وعظام الثدييات، ثم الكتابة باستخدام النقش على الحجر، تأتي بعدها الكتابة على لحاء الخيزران، فالألواح الخشبية، فالحرير، ثم يسفر الزمان عن الاكتشاف الذي سيقلب الموازين في كيفية الكتابة والتدوين، ويحقق ثورة في صناعة الكتاب، ومسيرة الطباعة؛ إذ يكتشف أحد العمال الفقراء طريقة لصناعة "الورق". وكأن مارداً خرج من القمقم؛ إذ يتلاحق التطور: فتظهر الكتب، ويقبل الناس على القراءة، وتنشأ مكتبات، ويعم الكتاب أرجاء العالم القديم والحديث، ويتنافس الناس في اقتناء ذلك السمير الجميل الذي ينام بين دفتين من الورق، أو الجلد، أو الخشب: الكتاب.